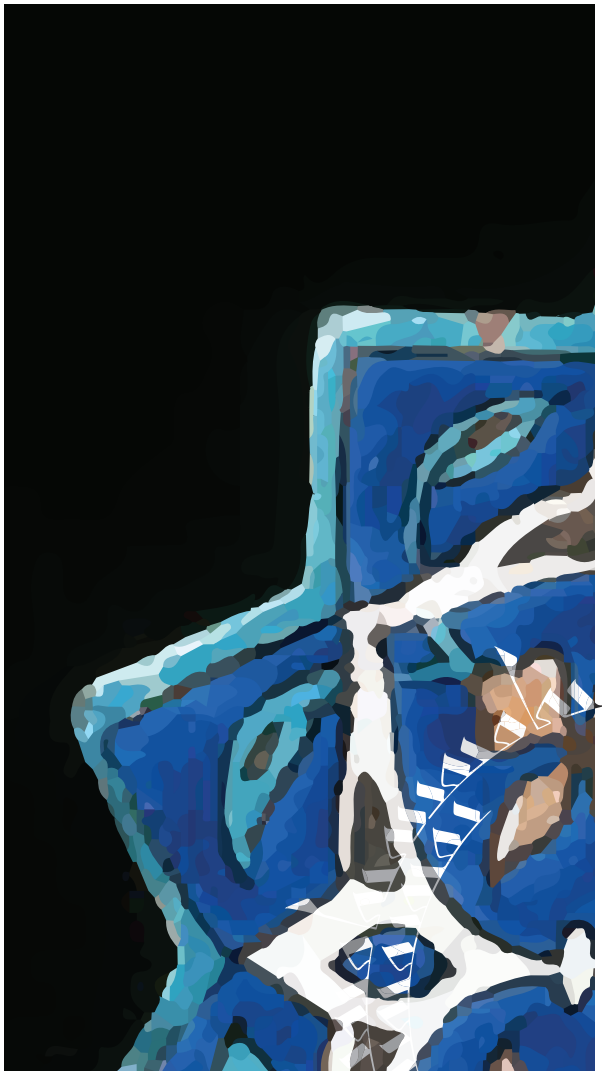

التجربة النبوية الشريفة في بناء المجتمع المسلم
-أسسها ومسالكها وخصائصها-

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي (Turnitin)
المصادر والمراجع بطريقة شيكاغو(Chicago)

أ. د. بودقزدام عمران

كلية العلوم الإسلامية/ جامعة الجزائر/ الجزائر
amraneabounacer@gmail.com

ملخص البحث

نسعى في هذه الورقة البحثية إلى تجلية المعالم الأساسية للمنظور القرآني والتجربة النبوية في بناء المجتمع. هذا المنظور الذي يشكّل الضابط والنّسق الناظم الذي يحدّد منطلقات المجتمع ومناهجه وتوجّهاته، فتنبثق عنها منظومة أفكاره ومفاهيمه، وقيمه الإيمانية والروحية، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته، وتتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، وتنبثق عنها منظومة قيمه وتشريعاته التي تضبط الجانب العملي لحياته في مختلف أنساق علاقاته، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري. ولهذا يشكل القرآن الكريم الذي جسدته التجربة النبوية واقعا متحققا ومعيارا مطلقا، ومعينا لا ينضب يُستلهم منه تجارب بناء المجتمع منطلقا ومنهجا ومقصدا عبر الزمان والمكان.

الكلمات المفتاحية: المنظور القرآني؛ التجربة النبوية؛ المجتمع؛ الأبعاد والخصائص.

المقدمة:

يعدّ المجتمع مدخلا أساسيا لتحقيق البناء الحضاري الراشد؛ بوصفه المكلّف بتمثّل فلسفته للحياة وتفعيلها في أرض الواقع وفق منهجية شاملة ومتكاملة قصدا إلى تأسيس أنموذج نهضوي نوعيّ يستمدّ مضامينه ومناهجه من المرجعية العليا للمجتمع، ويلبي تطلّعاته ومقاصده في الحياة.

ويعدّ القرآن الكريم المصدر الأساس الأوّل لهذه المرجعية، لما يتضمنه من رؤية كلّية متّسقة لأبعاد الوجود الإنساني - مبدأ ومنهجا ومقصدا ونظرا وتدبيرا- تعد بوصلة توجّه المجتمع في الحياة فكرا وحركة.

تشكّل هذه الرؤية الضابط والنّسق الناظم الذي يحدّد منطلقات المجتمع ومناهجه وتوجّهاته، فتنبثق عنها منظومة أفكاره ومفاهيمه، وقيمه الإيمانية والروحية، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته، وتتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، كما تنبثق عنها منظومة قيمه الأخلاقية وتشريعاته التي تضبط الجانب العملي لحياته في مختلف أنساق علاقاته، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري. ولهذا يشكل القرآن الكريم معينا لا ينضب يُستلهم منه تجربة بناء المجتمع منطلقا ومنهجا ومقصدا عبر الزمان والمكان.

كما تمثل السنة النبوية -قولا وفعلا وتقريرا- تجربة تنزيلية نوعية، أثبتت بشكل جلي قابلية نقل المنظور القرآني من النظرية إلى التطبيق؛ مما أثمر بعد مدافعة مريرة مع تجارب جاهلية تأسيس مجتمع مسلم يعدّ أنموذجا مثاليا، تُستلهم منه العناصر الحيوية للإصلاح، وتَستصحبه تجارب نهضوية لاحقة في شق مسالك تنشد تجديد صلة الأمة بدينها.

نَسعى في هذه الورقة البحثية -في ضوء ما سلف- إلى بيان مسلك النبي ﷺ في تأسيس العلاقات ونسجِها بين مختلف أطياف المجتمع في شتّى أنساق علاقاته -العلوية والأفقية-، مُستحضرين أصالةً المعالم الأساسية للمنظور القرآني في بناء المجتمع وكذلك الرّصيد الثري للسنة النبوية- قولا وفعلا وتقريرا-، بوصفها التّنزيل العَمَلي لتعاليم الدين.

وفي ضوء الأهمية الحيوية للبحث نسعى للإجابة عن التساؤل المركزي الآتي:

ما تفسير التحوّل النّوعي الذي طرأ في مجتمع الجزيرة العربية؟ هذا المجتمع الجاهلي الذي تنازعته الأهواء والعصبيات والخرافات والشركيات. وحين أشرق نور الوحي على النبي ﷺ انصهر المجتمع في بوتقة واحدة، حيث أصبح كما وصفه مالك بن نبي رحمه الله بـ «النموذج ذي الحجر الواحد»، محرّرا إياه من جاذبية التراب إلى آفاق روحية وسلوكية وحركية رحبة.

يتفرّع عن هذا التساؤل المركزي، جملة من الأسئلة الفرعية، هي:

أ- ما الأبعاد الكلّية للمنظور القرآني في بناء المجتمع المسلم؟

ب- ما الأسس التي أرست دعائم بناء المجتمع المسلم بمختلف تنوّعاته وأطيافه؟

ج- أين تجلّى دور التّجربة النبوية بوصفها التّنزيل العملي للدين في بناء وتأسيس اللبنة الأولى للمجتمع المسلم، من حيث النظر والتدبير؟

د- ما أبرز الخصائص وعناصر التميز في التجربة النبوية استلهاما للمنظور القرآني لبناء المجتمع -نظرا وتدبيرا-؟

وسعيا لتحقيق الأهداف المتوخاة، وللإجابة عن التساؤلات السابقة وظّفنا خطة تضمّنت العناصر المنهجية الآتية:

أولا: الأبعاد الكلّية للمنظور القرآني في بناء المجتمع المسلم.

ثانيا: التجربة النّبوية في تشكيل لبنة المجتمع المسلم -أسسها ومسالكها-.

ثالثا: التجربة النبوية في بناء المجتمع -خصائصها ومميزاتها- في ضوء القرآن الكريم وما صح من المرويات.

الخاتمة: تتضمن أهم النتائج.

أولا: الأبعاد الكلّية للمنظور القرآني في بناء المجتمع المسلم:

يمكنُ تحديد هذه الأبعاد في العناصر الآتية:

١- البعد التّصوري العقدي:

هيّأ القرآن الكريم للمجتمع أرضية فكرية تضمّنت رؤية كلية متّسقة للوجود، تشكّل بمجموعها عامل تحريك ودفع له نحو تفعيل رؤيته للحياة في أرض الواقع.

ويعدّ التوحيد[١*] حجر الزاوية في هذه الأرضية؛ لأنه يمثّل جوهر المرجعية الإسلامية الأصيلة، وروح الدين كلِّه ونواته، لما تضمّنه من رؤية كلّية مطلقة ومتّسقة للوجود كلّه، مبدءًا، وماهية، ومقصدا، ووسائل، مبناها إفراد الله عزّ وجلّ بالوحدانية في الذات والأسماء والصفات والأفعال، والعبادة، والحكم والتشريع.

فالله عز وجلّ -وفق هذه الرؤية- مبدأ كل شيء، ومنتهى كل شيء، وبهذا «فوجوده تعالى وإرادته وأفعاله هي الأسس الأولى التي عليها يقوم بناء كل الكائنات، وكل المعارف، وكل أنظمتها. سواء أكان موضوع المعرفة هو عالم الذرة الصغيرة، أم النجوم الكبيرة، أم أعماق النفس، أم سلوك المجتمع، أم مسيرة التاريخ»[٢].

رسمت هذه الرؤية الطريق لكلِّ جوانب الحياة البشرية، ملبّية تطلّعات الإنسان الروحية ورغباته المادية بشكل متوازن ودقيق، ومحقّقة لكرامته ومكوّنة لشخصيته، في انسجام مع الفطرة الإنسانية، وهو ما يثمر نظاماً متكاملاً للحياة البشرية بمختلف أطوارها.

وعلى هذا الأساس يستمدُّ كل الخلق وجوده، وماهيته من هذه الحقيقة العظمى، إنشاءً، وتدبيرا وعناية، وإفناءً، وحسابا، وجزاءً. وبهذه الرؤية الكلية المتّسقة يشكّل التوحيد «سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة والوجود، وما وراء الحياة والوجود»[٣].

كذلك حدّدت هذه الرؤية المتّسقة بوضوح وظيفة الإنسان والمجتمع في الحياة، وأنساق علاقتهم بالموجِد، والموجَد؛ فالإنسان مخلوق لله، أُرسل إلى الأرض لمقصد هو المقصد الأعظم المتمثّل في العبودية المطلقة لله تعالى، مصداقا لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤]، وهو خليفته المكلّف بتعمير الكون التزاما ببنود عقد وعهد الاستخلاف في الأرض[٥].

ولأهمية العقيدة والموقع المركزي للتوحيد شكّلت عملية ضبط تصور المجتمع ومعتقده عن الله والكون، والحياة، أولوية قصوى في المنهج القرآني؛ لأنّها تمثّل الأرضية الصلبة التي يُشيّد عليها صرح سمو المجتمع الأخلاقي، والروحي، والفكري، في توافق وتناغم مع قوانين الكون؛ ممّا يؤهّل لبناء حضارته.

تتبوّأ العقيدة بهذه الأدوار المهمة مكانة مفصلية بارزة في الضمير الجمعي للمجتمع، لتشكّل الضابط، والنّسق الناظم الذي يحدّد منطلقاته، ومناهجه، وتوجّهاته، فتنبثق عن العقيدة منظومة أفكاره، ومفاهيمه، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته وشريعته، وتتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري.

وقد حرص القرآن الكريم في هذا الإطار على تحقيق الثمرة من تفاعل المجتمع مع عقيدته وهو أن تنعكس إيجابياً على المجتمع، دافعة له نحو فضاءات السّعي السّنني، والحركية الإيجابية، ممّا يحمله على تفعيل كليات الاعتقاد في أرض الواقع، لذا ستتركّز جهوده بالخصوص على تنزيل كليات الاستخلاف التي تزاوج بين السموّ الإيماني في مراتب العبودية، والرسوخ الفكري في منظومة التفكير، والترقي التعميري في عالم المادة على أساس المعرفة. وهو ما يحيلنا للحديث عن ثمرات التصور العقدي المتمثّلة في الفعّالية الإيمانية في الحياة.

٢- البعد الإيماني:

من المقاصد الأساسية لترسيخ التصور العقدي تعميق بُعْد الإيمان في القلوب، عن طريق التحقّق بمفرداته الأساسية مثل: العبادة، والتّوكل، والمحبة، والإنابة، والتوبة، والتخلّق بأسمائه الحسنى، وكل ما من شأنه أن

يوثق الصلة بالله، فتحقّق القلب بالإيمان بالله تعالى سـ»يصوغ كيان الفرد صياغة متميزة، فيجعله ينمو صعدا في سلم الخير والإثمار والفعالية»[٦].

والدور في ذلك يعود للقرآن الكريم الشافي للأمراض النفسية والروحية التي لطالما عانى منها الإنسان، من قلق وحيرة ووساوس، قال تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا**﴾[٧]، فمن وصل قلبه بالله، سكن واطمئنّ واستشعر الحماية والأمن[٨]، كما يُشفى من «الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان...، وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار... ومن ثم هو رحمة للمؤمنين»[٩].

أسهمت الروح الإيمانية في تقويض بناء المجتمع الجاهلي القائم على العصبية للقرابة، والتقسيم الطبقي والقَبَلي على أساس اللون أو المال أو الجنس. وأقامت محلّ هذه العادات البائدة مقاييس جديدة تقوم على أسس معنوية سامية هي التقوى والفضيلة والإخاء الإنساني، والمساواة بين الناس في حق الحياة وحق الكرامة، والتفاضل على أساس التقوى. قال تعالى: ﴿**يا أَيُّها الناسُ إنّا خَلقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثى وجَعَلنَاكُم شُعُوباً وقَبَائلَ لِتَعارفُوا إنَّ أكرَمَكُم عِندَ الله أتقاكُم**﴾[١٠].

وأحدثت هذه الروح الإيمانية نقلات نوعية في المجتمعات التي حلّت بها، تجلّت ثمارها في النقلة العقديّة من الشرك إلى التوحيد، والنقلة المعرفيّة من التفكير الخرافي القائم على التقليد والجمود إلى الرؤية التوحيدية القائمة على النظر السنني والسببي، والنقلة الحضارية من الانعزالية والسلبية والخمول، إلى الفعّالية والحركية الإيجابية، المنضبطة بقواعد وكليات الاستخلاف من التسخير والتعمير والشهادة.

وعلى هذا الأساس فإن استعادة الباعث الإيماني وتنميته لأجل تفعيله، وترسيخ الروح الإيمانية في المجتمع، يعدّ أقوى ضمانات تماسكه وتلاحمه، وأمتن أسباب وحدته ومناعته؛ لما له من دور فعّال في صهر الشعوب، والقبائل، والأعراق، واللغات، في رحاب المجتمع التوحيدي الواحد على أساس الأخوّة الإيمانية، التي تثمر أداءً اجتماعياً نوعيا، يقوم على أساس التعاون، والتناصح والتكافل، لا على التّنافس المذموم، والتجاذب، والتنافر، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[١١].

وبهذا التمثّل الفعّال يُصبح الإيمان أساس حياة المجتمع الرسالي، وجبهته الأساسية التي تسنده في كل مراحل سعيه وحركيته، خاصة في أوقات الابتلاءات والصعوبات القاهرة.

٣- البعد التربوي السلوكي:

يُقصد بالأخلاق منظومة المبادئ القيمية أو المعيارية التي ترسم للسلوك البشري -الفردي والمجتمعي- طريقه القويم بما ينسجم مع بواعث النهوض ومقاصده.

تضمّن القرآن الكريم منظومة قيمية أسّست لنظرية نوعية متكاملة في البناء التربوي للإنسان والمجتمع، تمتلك القابلية للتجسيد، حيث سعت إلى تجديد سلوك الإنسان عبر عمليتين هما:

أ- التخلية: تتّجه إلى تطهير النفس من العلل والآفات التي تطمس إنسانيتها، وتفكّك مجتمعها، وتفسد كونها.

ومدار هذه العملية التحقّق الكامل بمقامات إيمانية رفيعة على أساس العبودية المطلقة لله تعالى، وهو ما من شأنه أن يستأصل مُهلكات القلب من جذورها، نذكر من هذه المقامات على سبيل المثال لا الحصر: المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمعاتبة، والتوبة والإنابة، والتواضع، والقناعة، والخوف والرجاء، والإخلاص.

نَذكر من الآيات القرآنية الواردة في هذا المسلك قوله تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[١٢]. وقوله عزّ وجل: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[١٣]. وقوله أيضا: ﴿**فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ**﴾[١٤]. وقوله جلّ جلاله: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[١٥].

ب- التحلية: تقصد تعبيد الطريق للنفس صوب ترقّيها في مقامات إيمانية، نذكر منها: الصدق، والتوكّل والمحبة، والتقوى، والشكر، والصبر، وكذلك تخلّقها بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى على أساس العبودية الكاملة لله تعالى.

نورد من الآيات التي تُستحضر في تمثل هذه المقامات قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[١٦]. وقوله عز وجل: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ**﴾[١٧]. وقوله جل جلاله: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[١٨].

ومن أهم الوسائل المشروعة في هذه العملية أداء العبادات القلبية والبدنية، مثل الصلاة، والحج، والذكر، والتدبّر. تتجلّى ثمار هاتين العمليتين في السلوك العملي للإنسان والمجتمع بمختلف أنساق علاقاتهم، والتي تتركّز في الأنساق الآتية:

أ- **نسق علاقته بالله (عز وجل)**: بتمثّل الكلّيات الإيمانية التي توثّق صلته بالله (عز وجل) مثل: التوكّل والاستعانة، والمحبّة، والخوف والرجاء، والتوبة والإنابة، وغيرها من الكليات التي ترفع منسوب الإيمان لديه، وتبوِّئه مرتبة سامية.

ب- **نسق علاقة الإنسان مع نفسه**: تقوم بالأساس على الخضوع والافتقار، والعجز المسجّى بالمحبة.

ج- **نسق علاقة الإنسان مع مجتمعه**: يتحقّق هذا النسق عن طريق تنمية مهارات الاتصال والتواصل الاجتماعي والثقافي مع مجتمعه، على أساس الانتساب الإيماني الذي يجعله منجذبا إلى شركائه في الإيمان، مرسّخا ومعزّزا النزعة الاجتماعية الكامنة فيه، كما تجعله غير معزول عن تيار الوعي العالمي، ومعتزا بثقافته وتراثه وتاريخه[١٩].

وقد نمّت العقيدة هذه النزعة بأساليب عدّة منها: إيقاظ حسّ الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، وتنمية روح التضحية والإيثار لديه، ودفعه للانصباب في قالب الجماعة. وبهذه التنشئة يندمج الفرد في المجتمع، محافظا على تماسكه، ومتناغما في حركيته مع منطلقات مجتمعه وتوجّهاته.

د- **نسق علاقته مع الإنسانية**: يتجلّى هذا النسق في علاقة المجتمع مع ما سواه من الأناسي- من أفراد الأسرة الإنسانية-، حيث يمثّلون بالنسبة إليه مشروع مسلم، ينبغي إيصال أنوار التنزيل إليه، لأجل استعادة فطرته.

هـ- **نسق علاقة الإنسان مع كونه**: تكون على أساس الرّفق به، والحفاظ على توازنه، وتجنّب الإفساد فيه، عبر التّسخير الوسطي لموارده وثرواته، والحفاظ على ديمومتها للأجيال اللاحقة.

زاوج القرآن الكريم في البناء التربوي للمجتمع بين عدّة أساليب. نذكر منها: التربية بالقدوة، والتربية بالوعظ والإرشاد والتذكير، والتربية بالترغيب والترهيب، والتربية بالقدوة الحسنة، والتربية بسرد القصص وضرب الأمثال.

تتجلّى مخرجات عملية التكوين الشامل للمجتمع عقديا، وتربويا، ومنهجيا، في تمثّل نوعيّ للحضارة، من حيث التحقّق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا يفضي إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتّوافق والتّناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقيّ التعميري المادي.

٤- البعد التشريعي الإجرائي:

تنزّلت الرسالة الإسلامية في مجتمع طغت فيه عبادات وتشريعات وثنية منحرفة اتخذت أشكالاً مختلفة من سجود للأصنام وتقرب لها بالذبائح، والأنصاب والأزلام، وانتشار الربا وأكل أموال الناس بالباطل وغيرها من الرذائل والموبقات.

وفي هذا الجوّ الوثني الملوّث أعاد الإسلام للعبادة دورها الحيوي، لكي تعبّر عن الفطرة التي فُطر عليها بنو آدم، ولتلبيّ تطلّعات الإنسان الرّوحية العلوية التي توطّد صلته بالسماء، كما أعاد الاعتبار للضوابط والقواعد التشريعية التي يستعين بها الإنسان والمجتمع في مختلف أنساق علاقاته.

أكدّ القرآن الكريم في هذا الإطار أنّ العبادة هي الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، وهو ما يتجلّى في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[٢٠]، كما بيّن عز وجل في الآية التّالية أنه مستغنٍ عن خلقه، فلا ينتفع بأوبة المؤمنين، ولا يتضرّر بإعراض الجاهلين، لذلك فكلّ ثمرات العبادة يجنيها صاحبها.

ومماّ لا شك فيه أنّ «الأصل في العبادات أنها تؤدّى امتثالا لأمر الله (عز وجل)، وقياما بحق الله على عباده وشكراً لنعمه التي لا تنكر، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود»[٢١]، فهي في محصّلتها ابتلاء للإنسان، كما دلّت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[٢٢]. لذا يجب على كل مسلم أن تكون غايته في كل عبادة إرضاء الخالق جلّ وعلا، وامتثال أمره في كل حركاته وسكناته، سواء علم آثار العبادات وأسرارها أم جهلها.

والنّاظر في التشريع الإسلاميّ، يجد من الحكم والفوائد التي لا يحيط بها إلا العليم الحكيم، حيث تضمّنت ما تنصلح به جميع أحوالهم النفسية، والفكرية، والجسدية، والاجتماعية والاقتصادية، قال الله (عزّ وجلّ): ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٢٣]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢٤]. لذلك فالله لم يخلق الخلق ليعذّبهم، ولا ليجدوا التّعاسة في حياتهم، وإنما زوّدهم بكل ما يقيم حياتهم على الخير والسعادة.

وتحقيقا لهذه الحكم والأسرار نجد أنّ "الإسلام حرص على تصفية هذه العبادات جميعاً من كل شائبة، ورقّى كل نوع منها إلى غايته، وأودع فيها الأسرار، وربط بها من الآثار، وجعل لها من التأثير في الحياة ما يليق بدين عام خالد، مهمته إصلاح الفرد، وإسعاد البيت، واستقرار الجماعة، وتوجيه الدولة، وهداية العالمين»[٢٥].

فالشريعة إذن، جاءت لتحقيق مصلحة الإنسان في العاجل والآجل. أما في الآجل فهو الفوز بالجنة مع الأبرار، ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾[٢٦]، وأما في العاجل فينال جزاء عمله الصالح من الصلة بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.

كذلك تبعث العبادات في الإنسان الشعور بالرضا والأمن، وطمأنينة القلب، وترزق البركة والصحة، والسرور بالعمل الصالح؛ مما يحدث أثرا في الضمير والحياة[٢٧]. قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[٢٨]، جاء في تفسيرها «يعني في الدنيا»[٢٩].

ولا تنحصر العبادة في الإسلام في مفهومها الخاص، أي في أداء الشّعائر التّعبدية بل هي «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[٣٠]، فيدخل في هذا المعنى أعمال تستوعب يوم الإنسان منذ طلوع الفجر إلى نهايته، بل تستوعب حياته كلها من بلوغه إلى مماته.

٥- البعد الفكري المعرفي:

سعى القرآن إلى تنمية ملكة التفكير عند الإنسان عبر صياغة تفكيره وبرمجته على أساس قوانين العقل الفطرية المودعة فيه، وهو ما يمكّنه من اكتساب مهارات الاستقراء والاستنباط والنقد، مستثمرا كل ذلك في فهم الظواهر الإنسانية والكونية على أساس فقه علاقتها السببية، وكشف قوانينها المودعة فيها؛ ممّا يثمر منظومة تفكير مؤهّلة للتّفاعل مع الكون تسخيرا وتعميرا. نذكر من أوجه عناية القرآن بتنمية ملكات العقل ما يأتي:

أ- الترغيب في التفكير والحث عليه:

لقد أعلى القرآن الكريم من شأن التفكر، حيث وردت مادة «فكر» في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعاً، ولكنَّها بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر؛ من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**﴾[٣١]، وقوله عز وجل: ﴿**أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**﴾[٣٢]، وقوله جل جلاله: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٣٣].

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾[٣٤]: «وقوله (لعلكم تتفكرون) غاية هذا البيان وحكمته... لِيَحْصُل لكم فكر أي علم في شؤون الدنيا والآخرة»[٣٥].

وقال أيضا في تفسير قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٣٦]، «أي مثل هذا التفصيل نُفَصِّل؛ أي نُبَيِّن الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع... واللام في (لقوم يتفكرون) لام لِأَجْل. والتفكر: التأمل والنظر»[٣٧]. فلأجل أن تتفكروا نفصل الآيات.

يمكن القول: إن التفكر وفق الرؤية القرآنية هو تنشيط وتفعيل للذهن في آيات الله الواضحات في الأنفس والآفاق من أجل أداء مهام الاستخلاف والعبودية لله تعالى.

ب- إيراد القرآن لنماذج التفكير السليم:

وممّا يبرز اعتناء القرآن الكريم بإعمال العقل أن ضَرَبَ لنا نماذج المتفكرين وما كان لتفكيرهم مِن ثمرات، فيقتدي الإنسان بهم رغبة فيما توصلوا إليه، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ**

﴿وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣٨]. قال الإمام محمد عبده في تفسير الآية: «ربنا ما خلقت هذا باطلا: هذه حكاية لقول هؤلاء الذين يجمعون بين تفكرهم وذكر الله عز وجل، ويستنبطون مِن اقترانهما الدلائل على حكمة الله، وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأكوان، التي تربط الإنسان بربه حق الربط. وقد اكتفى بحكاية مناجاتهم لربهم عن بيان نتائج ذكرهم، وفكرهم، فَطَيّ هذه وذِكْرُ تلك مِن إيجاز القرآن البديع، وفيه تعليم المؤمنين كيف يخاطبون الله تعالى، عندما يهتدون إلى شيء مِن معاني إحسانه وكرمه، وبدائع خلقه، كأنه يقول: هذا هو شأن المؤمن الذاكر المتفكر، يتوجه إلى الله في هذه الأحوال بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال... فذكر الله حالهم، وابتهالهم، ولم يذكر قصتهم، وأسماءهم لأجل أن يكونوا قدوة لنا في علمهم، وأسوة في سيرتهم»[٣٩].

كذلك ركّز القرآن الكريم في الجانب المعرفي على تنمية مهارات التفكير العلمي المنطقي، ونعني بها إعادة صياغة تفكير الإنسان وبرمجته على أساس قوانين العقل الفطرية التي أودعها فيه متمكنا من فقه عمليات القياس والتحليل والتركيب، والنّقد، والاستقراء، والاستنباط، والمقارنة مستثمرا كل ذلك في فهم الظواهر الإنسانية والكونية على أساس فقه علاقتها السببية، وكشف قوانينها المودعة فيها؛ ممّا يثمر منظومة تفكير مؤهّلة للتّفاعل مع الكون تسخيرا وتعميرا.

تُثمر عملية بناء الإنسان على أساس تمثّل كلّيات التوحيد وقواعد الاستخلاف انضباط منظومة تفكيره بنسق وناظم واحد توحيدي في التفسير والتّحليل، بحيث ينسب كلّ الظواهر والحوادث الكونية -الاجتماعية والمادية- على تعدّدها وتعقّدها إلى مبدأ واحد وعلة واحدة، فلا تلتبس عليه كثرتها، وتعدّد نواميسها، وبهذا يكون منهج الرؤية التوحيدية ونسقها أشبه بعمل البوصلة، الناظمة والضابطة لتصورات الإنسان ورؤاه وحركيته في الواقع، ممّا يكرّس هيمنة الرؤية التوحيدية في كل شعاب الحياة المعنوية والمادية.

يخوّل للإنسان المسدّد بالرؤية التوحيدية أن يتبوّأ مرتبة الإشراف والسلطنة على الحياة في المستوى الإنساني ماضيا وحاضرا ومستقبلا، حيث ينظر في الماضي بهدف الاعتبار، وتسديد مسيرة الإنسانية وتصويبها في الحاضر والمستقبل، كما يهيمن على الحياة في المستوى المادي، فيستثمر قوانين الكون لتعمير الأرض في إطار قواعد الاستخلاف وكلياته[٤٠].

تعدّ هذه الرؤية المتميّزة هندسة قرآنية خالصة، أثمرت ثورة منهجية، في نظم تفكير الإنسان، وطرائق عمله، حيث انطلقت من استنفار العقل لتحصيل المعرفة اليقينية الشاملة لعالمي الغيب والشهادة، والوجود الروحي

والمادي بالتفكّر والتدبّر والاعتبار، والتعقّل، والبينة والبرهان، وذمّت في السياق نفسه تعطيل ملكات العقل، بالتلبّس بآفات التقليد، والتعصب، والجمود.

نقل القرآن الكريم بهذه الصياغة النوعية تفكير الإنسان من طور الغرق في المثاليات التي آلت به إلى الركود والانعزال عن الواقع، إلى طور العقل الفعّال الذي يمضي بالإنسان قدما نحو استثمار نواميس الكون -المادية والاجتماعية- لأداء مهامّ الخلافة في إطار العبودية المطلقة لله تعالى. ممّا يثمر بناء حضاريا شامخا، تتجلّى فيه الثمرة المرجوّة من تفاعل الإنسان -المسدّد بالرؤية التوحيدية وكليات الاستخلاف- مع الكون، وهي العلم المنضبط بالتوحيد.

٦- البعد السّنني الحركي:

تضمّن القرآن الكريم توجيهات تبعث الوعي بالسنن في الفرد والمجتمع، حيث حثّ على التعمّق في فهم السنن واستيعابها، عبر النظر إلى آيات الله في عالم الأنفس والآفاق نظرة الكاشف لقوانينها، المحيط بأبعادها وآثارها، بهدف تسخيرها وتعمير الأرض على هداها في إطار تفعيل القواعد الكلية للاستخلاف في الأرض؛ ممّا يثمر مجتمعا فاعلا، متكيّفا مع واقعه، ومنضبطا بالنواميس الشرعية الكونية، ومتناغما مع غاياته ومقاصده .

وفي هذا الإطار وصف عماد الدين خليل القرآنَ الكريم بأنه: «قدم .... أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، ينتقل مِن مُجرد العرض والتجميع، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية»[٤١]. نذكر من التوجيهات القرآنية الواردة في هذا الشأن ما يأتي:

أ- التنبيه إلى وحدة السنن:

تجري نواميس الكون والحياة في نسق مطّرد، وضعها الله سبحانه وتعالى لحفظ نظام الحياة ودوام بقائها، لذا «فإن كل ما يقع فيه من كائنات وظواهر وتصاريف إنما هي راجعة إلى نواميس موحّدة»[٤٢].

هذا التركيز على النزعة التوحيدية في تفسير نواميس الكون هو الذي أرشد إليه الله تعالى في سياق المؤاخذة لفرعون وآله بسبب فكرهم المشتّت تبعاً لعقيدتهم المتلبسة بالشرك، قال عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ... الآية**﴾[٤٣]، فالفكر التوحيدي يفسّر ظواهر القحط والرخاء بمبدأ موحّد راجع لله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ**﴾[٤٤]، «ولكن آل فرعون عدّدوا في ذلك أسباباً موهومة من التطيّر بموسى ومن معه في حال القحط، ومن استحقاقهم الذاتي في حال الرخاء»[٤٥].

وخضوعاً لوحدة نواميس الكون فإن بني آدم مصيرهم واحد وهو الموت، بل كل من على ظهر هذه المعمورة، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾(٤٦). فهي دار لا مفر من ولوجها.

وما دام مصيرهم واحداً وهو السير نحو الموت، فلمَ التكبر والأنانية والغرور، والتميّز عن سائر الناس؟، إنها بسبب الغفلة عن الحقائق التي يريد القرآن ترسيخها في قلوب البشر وعقولهم(٤٧).

وقد نبّههم الخالق في القرآن الكريم على أنهم تناسلوا بطريقة واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٤٨). ولهذه الحقيقة أثرها النفسي، فهي تقتل الكبر والتعجرف من القلوب، فينضبط كل سلوكهم فيما بينهم على أساس التعاون والتراحم.

وإذا أدرك الإنسان وجود قانون يحكم الكون فإنّ حركته فيه ستتّسم بمرونة وسلاسة، فيحدد الهدف، ويعلم الطريق المناسب للوصول إليه من دون شك أو قلق أو خوف، وبوقوف الإنسان المسلم في العهد المكي وما جاء بعده من العهد المدني مروراً بالفتوحات الإسلامية على حقيقة السنن الكونية والتاريخية وإفادته منها يوماً بعد يوم، استطاع تجاوز العراقيل وتقليص الزّمن للوفاء بالأمانة القائم عليها على أكمل وجه.

ب- التأمل في أحوال الأقوام السابقين للوصول إلى اكتشاف السنن الحاكمة:

قرّر القرآن الكريم أن التاريخ البشري يخضع إلى سنن ثابتة، فهو: «لا يتحرك من فوضى وعلى غير هدف، وإنّما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء... سواء بسواء...، وإنَّ الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة، وإنّما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك...»(٤٩)، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾(٥٠)، أي قدر الله أن تمضي هذه النواميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول، لتحقق حكمته في الخلق والتكوين.

ولهذا أوجب على الأمة أفرادا ومجتمعات النظر والتدبّر والتفكر في أحوال الأمم الغابرة، واستخلاص العبر من مآلها. نذكر من هذه الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٥١).

إنه تتبّع لأحوال الأقوام؛ رَصداً لمواقف وأسباب ونتائج، تتكرر مُشَكِّلَة سُنَّة مُطَّرِدة، ووقوفا على العامل الحقيقي في تكرر السُنّة، ثم بعد ذلك يتوعد القرآنُ الكفارَ بأن السُّنَةَ لن تتأخر، ما دامت أسبابها متوفرة. نذكر من السنن التي أشار إليها القرآن الكريم في إطار التدبر في أحوال الأمم والمجتمعات سنن التدافع، والابتلاء، والتداول، والتجديد. وسنكتفي في هذا السياق بذكر أنموذجين هما:

- **سنة التدافع**: وهي سنة مطردة في الحياة البشرية[٥٢]، ومعناها «تسابق وتزاحم وتغالب دائب بين الرّغبات والإرادات، وبين الحاجات والتّحديات، وبين الأفراد والجماعات، وبين الثقافات والحضارات»[٥٣].

أما التّدافع بين الأفراد فيكون دائماً بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل أي بين المؤمنين وغيرهم، فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع، وذلك لأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو على الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، وقد «قضت إرادة الله تعالى أن تحكم هذه السنة الاجتماعية حركة الاستخلاف البشري»[٥٤] بناءً على حضوره في ساحة التدافع، كما نبهت على ذلك القاعدة القرآنية، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[٥٥].

وقضت سنة الله في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والسحق للباطل وأهله، قال تعالى: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[٥٦]، وهذا من تمام عدل الله سبحانه وتعالى.

- **سنة التداول**: يقصد بالتداول أو المداولة هنا «حركة توالي وتعاقب الجماعات والثقافات البشرية على مسرح الحركة الاستخلافية المفتوح على تجارب حضارية متواصلة بلا هوادة»[٥٧]، وهي هدف تتجه نحوه كل الجهود البشرية من خلال سنة التدافع[٥٨]، والتداول سنّة حتمية لا يمكن التخلص منها أو الإعراض عنها بحال، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[٥٩]، وقال أيضاً: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾[٦٠]، إذ توضع في حلبة التدافع كل الأمم والشعوب للوصول إلى القيادة الحضارية، وكلما كانت فعّالية الإنسان، وبذله في إطار خصوصيته الثقافية وتميزه الحضاري كان الوصول إلى التفوق الحضاري والاستخلافي.

٧- بعد الشهود الحضاري:

حث القرآن الكريم الأمة على التحقّق بمرتبة الشهود الحضاري، بوصفها الأمة الوسط كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...**﴾[٦١].

ويمتلك المجتمع في إطار سعيه للتحقّق بالشّهود في بنيته من عناصر القوة ما يخوّل له تبوّء مرتبة الشهادة، من أهمّها على الإطلاق ثراء منظومته الفكرية -العقيدة-، والقيمية -الأخلاق- النّابعة من مصادر يقينية مطلقة، تمكّنه من تقديم بديل حضاري يرتكز بالأساس على منظومة قيمية وروحية سامية، وهو الجانب الذي تفتقده الحضارة الغربية القائمة على أساس مادّي صرف.

نذكر من أهمّ مفاصل هذه المنظومة: الكلّيات الإيمانية القائمة على أساس براهين العقل، وحقائق الوحي، وصفاء الفطرة، وشفافية الوجدان، والكليات الأخلاقية التي تتضمّن مسلك السير القلبي إلى الله عبر الترقّي في مراتب العبودية، ومسلك تزكية النفس، ومسلك الأدب مع الخلق، والكلّيات التشريعية التي رسمت أنساق

علاقة الإنسان مع ربّه، ومع نفسه، وأخيه الإنسان، وكونه.

تكوّن كل هذه المقوّمات نظرية متكاملة لبناء الإنسان والمجتمع من الناحية الفكرية -التصورات والعقائد، ومناهج التفكير-، ومن النّاحية العملية السلوكية -الأخلاق، والعبادات، والتشريعات-.

كما تشكّل هذه المنظومة النّوعية التي رسمها المنظور القرآني من كلّيات اعتقادية، وقيمية، وتشريعية سقف التحرّك الإنساني على المستويين: التنّظيري والتنفيذي، مقدما بديلا شاملا، وأنموذجا حضاريا عالميا، يعالج مشاكل العصر الأساسية، مقدّما لها حلولاً تفوق نوعياً الحلول التي يقدمها الغرب.

وعلى أساس تمثّل هذه المنظومة في الفهم والتطبيق تتوجّه الأمة والمجتمع والأفراد صوب فضاء واسع هو فضاء الإنسانية جمعاء على امتدادها في الزمان والمكان، واضعا نصب عينيه رؤية مستقبلية، تبعث فيه حركية إيجابية نحو تحقيق مشروع عالمي يستهدف تصويب مسار الإنسانية وتسديده، وتكميل جوانب النّقص فيها، ممّا يدفع بالحركة الإنسانية نحو مزيد من التكامل والرقي البشري في عالمي الروح والمادّة.

واستشعارا بأهمية المفصل الاجتماعي في معادلة تأسيس الدّولة أولى النبي ﷺ عملية بناء المنظومة الاجتماعية اهتماما كبيرا، حيث جعلها موازية لبناء الجانب العقدي والفكري والأخلاقي، وهذا بإرساء الأسس أو الأصول المبدئية التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية استلهاما من المنظور القرآني، ممهّدا للمرحلة المدنية وهي مرحلة التأسيس الإجرائيّ التشريعي للمجتمع المدني.

ثانيا: التجربة النّبوية في تشكيل لبنة المجتمع المسلم -أسسها ومسالكها-

انبنت التّجربة النبوية على الإنسان بوصفه العنصر الجوهري، وحجرَ الزاوية في إحداث عملية التغيير، والشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي[٦٢]، تمثّلا بالقانون القرآني الذي ورد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**...الآية﴾[٦٣].

وهنا شكّلت سيرة النبي ﷺ نموذجا متميّزا في تمثّل هذا القانون عندما «عمل على ربط الناس بالرؤية التوحيدية، وبالتالي بالأهداف الحضارية الكبرى للإسلام، كبديل عن الأهداف الصغرى والبسيطة للجاهلية القديمة...، لقد سعى الرسول ﷺ عن طريق عمليات «الربط الحضاري»[٦٤] الأول إلى بناء جماعة إسلامية قاعدية (الصحابة) على أساس الأنموذج الحضاري التّوحيدي، تلك الجماعة التي ستكون قاعدة البناء الحضاري الإسلامي، والذائدة عن حمى الإسلام، ورسالته ومشروعه»[٦٥].

لقد قام النبي ﷺ بصياغة جذرية لشخصية المسلم، بداية بتصفيتها من كل الشوائب والمعوقات[٦٦*] التي كبّلت طاقاته وعطّلت إرادته وفاعليته في الحياة، وأخبتت جذوته الإيمانية، ثمّ وفّر جوا روحيا ملائما حرّره من قيوده، وأرشده إلى سبل التمكين في الأرض.

قوّمت هذه الصياغة رؤية الإنسان والمجتمع للكون والحياة، وأعادت برمجة نظام تفكيره ومعرفته، لتثمر في آخر المطاف عقلا فاعلا منضبطا بالنواميس الشرعية الكونية، ومتناغما مع غاياته ومقاصده.

كما جسّد النبي ﷺ المبادئ والمثل القرآنية أعظم تجسيد، بداية من تمثّله لمنظومة الأخلاق، حيث كان الأنموذج القدوة في تمثّلها إلى درجة الكمال، فاستحقّ من الله سبحانه وتعالى تزكية وشهادة عظيمة، تجلّت في قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٦٧]، وكذلك بما وصفته به عائشة لمّا سئلت عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآن)[٦٨].

وعلى هذا كانت تزكية النفس وبناء الأخلاق من صميم دعوة الرسول ﷺ، وهو ما شهد المولى عز وجل به في قوله: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[٦٩].

وهنا تحمّل النبي ﷺ مسؤولية جسيمة تجاه أمّته، فكان عليه أن يبدأ مهمة تربية المجتمع الجديد، على أساس قيم أخلاقية رفيعة، مستمدّة من رسالة السماء، مع المحافظة وتكميل الفضائل والمكارم، التي عرفتها المجتمعات الإنسانية السابقة، وتطهير المجتمع من كل رواسب الماضي وانحرافات الناس الخلقية، والاجتماعية، والنفسية.

ثمّ توجّب علي النبي ﷺ تحويل الطاقة المبعثرة والكامنة للأفراد إلى بناء متكامل وشامل يسمو بالمجتمع روحيا وأخلاقيا، ويرتقي به تعميريا وماديا، على وفق تصوّر الوحي وقيمه وتشريعاته، ونموذجه الواقعي الحي سيرة النبي ﷺ، قال عزّ وجل: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾[٧٠].

وعلى وفق هذه الرؤية تأسّس منهجه في الصياغة الجذرية الشاملة للمجتمع الجاهلي على ثلاث دِعامات هي:

١ - الصياغة العقدية والروحية للمجتمع:

وظّف النبي ﷺ لتحقيق هذا الهدف مجموعة من الخطوات هي:

أ- صياغة العقيدة: شكّلت عملية ضبط تصور المجتمع ومعتقده عن الله والكون، والحياة، أولوية قصوى في المنهج النبوي؛ لأنّها تمثّل الأرضية الصلبة التي يُشيّد عليها صرح سمو المجتمع الأخلاقي، والروحي، والفكري، في توافق وتناغم مع قوانين الكون؛ ممّا يؤهّل لبناء حضارته. وتقوم هذه الصياغة على عمليتين هما:

ب- **التخلية**: تطهر عقيدة المجتمع من كل الشوائب التي عكّرت صفو تصوره لحقيقة الوجود مبدأ ومسلكا ومصيرا.

- **التحلية**: تقصد بناء تصوّر عقدي على أساس من اليقين الخبري، والعقلي، وبتعبير أدق على أساس حقائق الوحي، وقواطع العقل.

من المقاصد الأساسية في هذه العملية تعميق بُعْد الإيمان في القلوب، عن طريق التحقّق بمفرداته الأساسية مثل: العبادة، والتّوكل، والمحبة، والإنابة، والتوبة، والتخلّق بأسمائه الحسنى، وكل ما من شأنه أن يوثق الصلة بالله، حتى يصبح الإيمان أساس حياة المجتمع الرسالي، وجبهته الأساسية التي تسنده في كل مراحل سعيه وحركيته، خاصة في أوقات الابتلاءات والصعوبات القاهرة.

ب-خلق الدّافعية في العقيدة: ليست العقيدة أفكارا مجرّدة، قابعة في زوايا الدماغ، بل لا بدّ أن تنتقل إلى مستوى تكون فيه قوّة دافعة محرّكة لكيان الإنسان والمجتمع.

تمثّل هذه الدافعية محصّلة تفاعل النفوس مع الدين المستمد من الوحي، فمنه تستقي ماهيتها ومقاصدها في الوجود، وهو ما ينعكس إيجابياً على ملكات الأناسي الوجدانية والعقلية والجسمية؛ ممّا يؤهّلها لأداء رسالتها وتبليغ أمانتها على أكمل وجه، ويحملها على التّضحية والبذل والعطاء من أجل تحقيق مشروعها الاستخلافي في الحياة، دافعة لها نحو فضاءات السّعي السّنني، والحركية الإيجابية، والفعّالية الواقعية، محدثة انقلابا هائلا في التصوّرات، والقيم، والنّظم.

ولتكوين الدافعية وفّر النبي ﷺ شروطا نفسية واجتماعية أحدثت التّفاعل بين المجتمع ومبدئه الأصلي سببت فعّاليته وحركيته، تمثّلت في الآتي:

- حضور الأنموذج القدوة، المتمثل في النبي ﷺ الذي تمثّل تعاليم الإسلام في الفهم والعمل، ممّا جعله محورا يستقطب أفراد الأمة بغية تمثّل نهجهم، والتأسي بسيرتهم.

- الاستمداد المباشر لحقائق الوحي دون وسائط، واستثمارها في التكوين الشامل للأناسي من النواحي الروحية والتربوية والعقلية.

- النّسج على منوال القرآن الكريم في مخاطبة واستنفار قوى الأناسي وملكاتها المختلفة.

ج- **تفعيل عقيدة المجتمع في أرض الواقع**: إذا تحقّق المجتمع بالعنصرين السابقين سيمضي قدما نحو ترجمة ذلك في سلوك حركّي عملي. وهو ما تجلّى في المجتمع المؤسس الذي أرسى دعائمه النبي ﷺ، حيث كان نموذجا فعّالا في نقل تعاليم الوحي من النظرية إلى التطبيق وتجسيده واقعا معيشا، ممّا يعد مؤشّرا على درجة الانسجام بين الفكر والسلوك، والحياة في جوّ التوافق والتناغم الذي يطوره ويرقيه ويسمو به في مدارج السالكين لسبل النبوة ومراقيها.

أثمر هذا التّوافق والتّناغم نموذجا حضاريا نوعيا -الحضارة الإسلامية- تميّز بالقدرة على تفعيل كليات الاعتقاد في أرض الواقع، وتنزيل كليات الاستخلاف التي تزاوج بين السموّ الإيماني في مراتب العبودية، والرسوخ الفكري في منظومة التفكير، والترقي التعميري في عالم المادة على أساس المعرفة.

بعد استكمال النّبي ﷺ لصياغة عقيدة الإنسان فهما وتفاعلا وتفعيلا، مضى قدما نحو توظيف عمل تربوي نوعي شامل يعدّ عنصرا معضّدا، يرسّخ الإيمان في الأنفس، ويحافظ على الشّعلة الإيمانية متوقّدة في القلوب. وهو ما من شأنه أن يستثمر كلّ قوى الإنسان -بوصفه نواة التغيير- المعرفية والوجدانية والجسمية موجّها إيّاها نحو أداء مهامه المنوطة به في الحياة.

٢- الصياغة الأخلاقية والتربوية للمجتمع:

يُقصد بالأخلاق منظومة المبادئ القيمية أو المعيارية التي ترسم للسلوك البشري -الفردي والمجتمعي- طريقه القويم بما ينسجم مع بواعث النهوض ومقاصده.

شكّلت السنّة النبوية أقوالا وأفعالا وتقريرات مادة استمدت منها أسس التربية ومبادئها وأهدافها، ووسائلها وأساليبها، باعتبارها القدوةَ الحسنة أو التطبيق العملي لكل التربية الإنسانية المتضمنة في القرآن الكريم، بحيث يمثل ﷺ واقعا حيا وسلوكا طبيعيا يزاوج بين القول والفعل. قال النّورسي في هذا السياق: «إن اتّباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها. والاتباع يعني: تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله. فإنّ أعماله اليومية ومعاملاته العرفية وتصرفاته الفطرية الاعتيادية تأخذ بهذا الاتباع شكل العبادة، فضلا عن أن اتّباع السنة وتحري شرع الله في شؤون المؤمن جميعها يجعله في صحوة دائمة، وتذكر للشرع مستمر، وتذكّر الشرع هذا يؤدي إلى ذكر صاحب الشرع الذي يؤدي إلى تذكر الله سبحانه، وذكر الله سبب لسكينة القلب واطمئنانه»[٧١].

زاوج النبي ﷺ في عمله التربوي بين عدّة أساليب مستلهما في ذلك طريقة القرآن الكريم. نذكر من هذه الأساليب: التربية بالقدوة، والتربية بالوعظ والإرشاد والتذكير، والتربية بالترغيب والترهيب، والتربية بالقدوة الحسنة، والتربية بسرد القصص وضرب الأمثال.

وهنا ركّز النبي ﷺ في هذه العملية بالأساس على القيم التي تدعّم تلاحم شبكة علاقات المجتمع في اتّجاه تحقيق الهدف المرسوم، حيث تمثّل مسلك الإسلام في إرساء دعائم قيم الوحدة بين أفراد الأمّة على أساس منهج متميّز يضبط سلوك الفرد في توازن بين الكوابح والمحفّزات[٧٢*]، مثل: توظيف أسلوب الترغيب الترهيب، الذي يزيّن لأفراد المجتمع طريقاً سهلاً موصلاً لتحقيق السّعادة في الدّارين، ونيل رضوان الله عن طريق محبة الآخرين، يتجلّى هذا في قوله ﷺ: (**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**)[٧٣]. وقوله أيضا: (**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُه، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)[٧٤].

فجعل الإسلام شيوع المحبّة المتبادلة بين أفراد المجتمع، أمارة على تحقّق الإيمان، مرتبا عليها دخول الجنة، وهو ما يشكّل حافزا يدفع المسلم نحو التفاعل الإيجابي مع مجتمعه عبر مدّ جسور المودّة والرحمة مع أفراده، مستحضرا المسؤولية المنوطة به تجاههم، ممّا يقوّي أواصر المحبة والتسامح والتناصح والإيثار، وكفّ الأذى بين أفراد المجتمع، مدعّما نظم المجتمع ومبرزا معالم الانضباط فيه.

لقد شكّل الرّسول ﷺ لحمة المجتمع في المدينة بالرّوح القرآنية، فكانت هذه العصبة منّة عظيمة من الله تعالى، حيث قال في محكم تنزيله: ﴿..**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**..﴾[٧٥].

وقد اتّخذ الرسول عليه الصلاة والسلام العقيدة الإسلامية أساسا لتوحيد المجتمع الذي كان مشكلا من المهاجرين والأنصار، بحيث أصبحت أفكارهم ومشاعرهم وتنظيم علاقاتهم واحدة. وهذا الأساس العقدي هو الذي ظلّ يقيم عليه بنيانه طوال ثلاث عشرة سنة.

أثمرت هذه الصياغة العقدية بناءً اجتماعيا شامخا ظهرت مآثره في حياة الفرد كما في حياة الجماعة[٧٦]، فتحوّل المجتمع كما وصفه المفكّر مالك بن نبي إلى «النّموذج ذي الحجر الواحد»[٧٧]، الذي اتخذ صورة واحدة، كما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: (**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**)[٧٨].

ولا شكّ أن أهمّ آلية فعّالة وظّفها النبي ﷺ في بناء المجتمع المسلم هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حيث كان حريصا على إقامة روابط خاصة بينهم يواسي بعضهم بعضا، ويعوض بعضهم بعضًا ما فقد من المال

والأهل والأصحاب نتيجة إسلامه أو هجرته...، وكانت هذه المؤاخاة للارتفاق والمساعدة والتفقد والتعليم والتعاون على الخير[٧٩]. وقد كانت هذه المؤاخاة بعد خمسة أو ثمانية أشهر أو أقل أو أكثر من مقدمه ﷺ المدينة[٨٠].

لقد آخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نِصفهم من المهاجرين، ونِصفهم الآخر من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت، دون ذوي الأرحام، إلى حين غزوة بدر، في رمضان من السنة الثانية للهجرة[٨١].

وبتفعيل النبي ﷺ لقيمة المؤاخاة في المجتمع المسلم حقّق مجموعة من الأهداف الخيّرة التي لعبت دورا حاسما في التّمكين للدولة الإسلامية الفتية، نذكر منها ما يأتي:

أ- شد أزر المؤمنين بعضهم ببعض:

إنّ توطيد العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم على أساس الأخوّة الإيمانية يزيد النسيج الاجتماعي متانة، ممّا يجعله في مأمن من حدوث التراخي في وحدته العضوية؛ باعتبار أن رابطة الإيمان من أقوى عوامل التّماسك الاجتماعي. يقول عليه الصلاة والسلام: (حقّت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبّتي للمتواصلين فيّ، وحقت محبتي للمتناصحين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، المتحابون فيّ، على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء)[٨٢].

ب- ذهاب وحشة غربة المهاجرين:

كان الغرض من المؤاخاة ذهاب وحشة غربة المهاجرين الذين فارقوا ديارهم وأهلهم، وتركوا أموالهم ومتاعهم نصرة للدعوة، وهم الذين وصفهم الرسول الله ﷺ بقوله: (إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي)[٨٣].

ج- تلبية حاجة الأنصار إلى التفقّه في الدين:

إنّ للمؤاخاة مقاصد أبعد وأشمل، فلا بدّ لتلبية حاجة الأنصار إلى التفقه في الدين، من القيام بمؤاخاة بين صحابي قطع شوطا كبيرا في التفقه في الدين، واستنار بصحبة النبي ﷺ زمنا غير يسير، وصحابي حديث عهد بالإسلام يفتقر إلى تفقه أمور دينه. وعلى أساس هذه العلاقة الإيمانية يحصل التكامل في ممارسة التدين تعليما وتعلّما. يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ**﴾[٨٤].

د- تحقيق القدوة الصالحة:

يقوم التديّن الصحيح على أساس القدوة الصالحة، لذلك كان من الضروري أن يتم توزيع المهاجرين السابقين الأوّلين على عشائر الأنصار يعيشون معهم حياتهم بكل تفاصيلها، ليتمكنوا من صناعة القدوة الحسنة، والوحدة التربوية النبوية بين الجميع، ولا يمكن تحقيق ذلك بغير العيش المشترك الذي يتجاوز المصاعب التي تفرضها مشكلات المأوى والتكسّب والصحبة، فبالمؤاخاة أصبح المهاجر أخاً لا يبعده عن أخيه الأنصاري العادات والتقاليد الاجتماعية، وغيرها.

هـ- تحقيق التكافل والتعاون الاجتماعي:

من مقاصد عملية المؤاخاة تحقيق التكافل والتعاون بين الأنصار والمهاجرين، في مختلف صوره، وهو التكافل الذي يعزّز قيم الإيثار والتضحية ونكران الذات(٨٥*) في سبيل تحقيق المقاصد العليا للأمة الإسلامية. نذكر من أبرز الصور المشرقة لتفعيل قيمة التكافل بين الأفراد في المجتمع المسلم ما يأتي:

- بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف:

جاء في صحيح البخاري قال: (حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَآخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ فَقَالَ سَعْدٌ قَدْ عَلِمَتْ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَهْيَمْ قَالَ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ مَا سُقْتَ إِلَيْهَا قَالَ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ)(٨٦).

- مشاركة الأنصار مع المهاجرين في أشجار النخيل:

روى البخاري: (حَدَّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَتْ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ قَالَ لَا فَقَالُوا تَكْفُونَا الْمُؤُونَةَ وَنَشْرَكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)(٨٧).

فهنا اقترح الأنصار أن يكون نخل المدينة مشاركة مع إخوانهم المهاجرين، قالوا: لا، قال: تكفوننا المئونة، وتشاركوننا في التمر، الأنصاري عرض أن يتملك المهاجر نصف أشجار النخيل، قال: لا، نحن نعتني بهذه الأشجار بجهدنا، أعطونا بعض الثمار، ولتبق الأشجار لكم. وهذا يدلّ على عزة نفوسهم التي تأنف الهوان وأن تكون عالة على الآخر.

و- تحقيق التّكامل والتعاون بين المهاجرين والأنصار:

من مقاصد المؤاخاة تحقيق التكامل والتعامل بين المهاجرين والأنصار، وهذا يقتضي أن تكون المؤاخاة بين متماثلين، فكانت بين مهاجر له سبق في العلم والتديّن وأنصاريّ حديث عهد بالإسلام؛ لتحقيق القدوة الحسنة والتعلّم، وكانت أيضا بين الغني والفقير، وبين الصحيح والمريض. ولذلك كانت المؤاخاة تعاونا خلاّقا بين المسلمين كل واحد يكمّل جوانب النّقص في الآخر، وهذا المنهج يحمل في طياته عبقرية التخطيط النبوي.

استمرت هذه المؤاخاة حتى بعد وفاة النبي ﷺ، فكان كل صحابي يشعر نحو من آخى الرسول ﷺ معه بشعور خاص، حتى أن بعضهم قد أوصى بجزء من تركته للآخر عند وفاته(٨٨). وبعد الفتوح وانتشارهم في الأرض ظلوا يتراسلون ويسأل بعضهم عن بعض ما بين فارس والشام وغيرهما استمرارا لهذه المؤاخاة التي أرسى دعائمها النبي ﷺ على أساس الإيمان(٨٩).

يتبيّن ممّا سلف فعّالية القيم النّبوية المستمدّة من التوحيد في تشكيل لبنة المجتمع المسلم الذي تأسّس في المدينة، وهو الأنموذج المثالي الذي تستلهم منه الأمة الإسلامية عناصر الإصلاح والتجديد لبعث الحياة فيها من جديد، فما أحوجنا إلى هذه القيم في عصر هيمنت فيه النزعة المادية وأصبحت موجّهة ومبرمجة لحياة الإنسانية جمعاء.

وبهذا السّمو الإيماني الروحي استحق مجتمع المدينة ثناء من الله جل جلاله، فقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(٩٠). ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «الأَنْصَارِ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاّ مُؤْمِنٌ وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاّ مُنَافِقٌ. مَنْ أَحَبَّهُمْ فَأَحَبَّهُ اللهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَأَبْغَضَهُ اللهُ»(٩١).

ولم يقتصر عمل النبي ﷺ على تعزيز نسيج المجتمع، بل وظّف آليات وقائية أصيلة مستمدّة من تعاليم الإسلام(٩٢*)، منوطة بها حماية الشبكة من محاولات إحداث شرخ في النسيج الاجتماعي للأمّة.

تجلّت مخرجات عملية التكوين الشامل للمجتمع عقديا، وتربويا، ومنهجيا، في تمثّل نوعيّ للحضارة، من حيث التحقّق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا أفضى إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتّوافق والتّناغم في أنساق علاقته بالله (تبارك وتعالى)، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقيّ التعميري المادي.

٣- الصياغة التعبدية التشريعية:

حرص النبي ﷺ على أن يمتثل مجتمعه للتعليمات القرآنية في جانب العبادات، حيث كان يحث أصحابه على أدائها في أرقى صورة، ونهاهم عن التقصير فيها؛ لأنها الوسيلة التي تعقد الصلة بين العبد وربه، وهي المسلك الذي يَقصد تزكية نفس الإنسان، ويبلغها مقامات إيمانية رفيعة. نذكر من الشواهد في ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

وعن عبد الله بن سلام أن النبي ﷺ قال: (أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيامٌ، تدخلوا الجنة بسلام)[٩٣].

كذلك حرص النبي ﷺ على حث أمته على أداء صلاة الجماعة في المسجد، حيث جعلها نظاما جماعيا لتراصّ الصفوف في المجتمع المسلم، قاصدا أن يكون الخضوع لله تعالى ظاهرة عامة في المجتمع، لا مجرد مسلك فردي خاص فحسب، لذا فإقامة صلاة الجماعة من أهم الأعمال التي تبرز هذه الظاهرة وتحافظ على دوام تحقيقها؛ لما فيها من ترسيخ لوحدتها وتقوية لنسيجها الاجتماعي، وتطعيمها من الأوبئة التي تبعثها على التفرق والتشرذم[٩٤].

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعودٍ قال: (مَن سرَّه أنْ يَلقَى اللهَ غدًا مسلمًا فليُحافِظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث يُنادَى بهن -يعني: في المساجد- فإنَّ الله شرع لنبيِّكم محمد ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنَّكم صلَّيتم في بيوتكم كما يُصلِّي هذا المتخلِّف في بيته لتركتُم سنَّة نبيِّكم، ولو تركتُم سنَّة نبيِّكم لضَللتُم، وما من رجلٍ يتطهَّر فيُحسِن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلاَّ كتَب الله له بكلِّ خطوةٍ يخطوها إلى الصلاة حسنةً، ويرفَعُه بها درجة، ويحطُّ عنه بها سيِّئة، ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلاَّ منافقٌ معلوم النِّفاق، ولقد كان الرجل يُؤتَى به يُهادَى بين الرجلين حتى يُقام في الصف)[٩٥].

وركز النبي ﷺ في مسلكه للصياغة التشريعية للمجتمع المسلم على عبادة الزكاة، بوصفها وسيلة محورية في تحقيق التلاحم الاجتماعي وزرع روح المسؤولية في نفوس الأغنياء تجاه الفقراء، لذا رغّب النبي ﷺ في توزيع الصدقات والزكوات على الفقراء والمساكين تحقيقا لقيم التكافل والتآزر بين مختلف فئات المجتمع.

قال ﷺ: (ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ)[٩٦]. وَقَالَ أيضا ﷺ: (ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ،وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ)[٩٧].

وهكذا تحقّق المقصد من امتثال المجتمع المسلم للعبادات والتشريعات، بتوحيد مصدر التلقي، وتمتين شبكة علاقاته الاجتماعية، وتوجيهه صوب غاية واحدة هي العبودية المطلقة لله تعالى، التي يدخل في رحابها تفعيل كليات الاستخلاف من التسخير والتعمير.

٤ - الصياغة المعرفية العلمية:

هيّأ النبي ﷺ المناخين النفسي والعقلي اللذين تنبُت فيهما المعرفة العلمية، بحيث تترسخ أصولها، وتمتد فروعها لتثمر رقيا معنويا وماديا في كل شعاب الحياة.

ومن هنا اعتنى النبي ﷺ بتنمية القدرات المعرفية والعلمية لأصحابه التي قوامها النظر والتأمل والتفكر والتدبر، مستلهما من القرآن الكريم مسلكا يقوم على الإعلاء من قيمة العقل الذي يعد أبرز ملكة أودعها الله في الإنسان جاعلا إياها مناط التكليف. نذكر من أبرز ملامح التجربة النبوية في تنمية الجانب المعرفي والعلمي في المجتمع ما يأتي[٩٨]:

أ- تكوين العقلية العلمية: يقوم على مجموعة من الأسس هي:

- **عدم قبول الدعوى من غير دليل مهما كان مصدرها:** الدّليل هو البرهان النّظري في العقليات. قال تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٩٩]، وصحة الرواية وتوثيقها في النقليات قال تعالى: ﴿**ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[١٠٠].

- **رفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين والجزم والعلم الموثوق:** جاء في الحديث الصحيح: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)[١٠١].

- **توظيف القواعد العلمية في الحكم على الظواهر الإنسانية والكونية بهدف الوصول إلى حكم صحيح فيها:** يُستشف من خلال تتبّع سيرة النبي محمد ﷺ أنّه أول إنسان في العالم طبق المنهج العلمي، حيث أخضع ظاهرة نفسية للملاحظة المنهجية، كما يفعل علماء النفس في العصر الحديث، متوسلا بقواعد النظر العلمي القائمة على الملاحظة، ثم الفرضية ثم الوصول إلى إصدار الحكم. طبق هذا المنهج حين أراد التأكّد من شخصية ابن صياد هل هو حقيقة المسيح الدجال أم لا[١٠٢].

- **رفض الأحكام المبنية على العواطف والأهواء والاعتبارات الشخصية:** يكون هذا باستصحاب الحياد والموضوعية، وكذلك التعامل الواقعي مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود أيّا كانت نتائجها. قال تعالى: ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾[١٠٣][١٠٤].

- **الثورة على الجمود والتّقليد، والتبعية الفكرية للآخرين:** سواء كانوا من الآباء والأجداد أم من السّادة والكبراء، أم من العامة والجماهير.

جاء في السنة تحذير من اتّباع الجمهور وإن كانوا على خطأ، وإدانة لعقلية من يرضى لنفسه أن يكون تابعا، وقد خلقه الله سيداً قال النبي ﷺ: (لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ

وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا)[١٠٥].

إن هذا الموقف الأخلاقي الذي يتميّز باستقلال الشخصية في السلوك، يدعو الإسلام إلى مثله في الفكر أيضا.

ج-**نشر التعليم ومحاربة الأمية**: من التعاليم التي تُهيّء تربة المجتمع لظهور التفكير والبحث العلمي نشر التعليم والحد من الأمية.

ولّما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حمل معه رسالة العلم والتعليم، ولقد كان الصحابة يتلون قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[١٠٦]، فيدركون أسباب الرفعة والرقي ونيل الدرجات في الدنيا والآخرة.

وكان الرسول ﷺ يأمر المتعلم بتعليم الآخرين، فقد حث وفد عبد القيس على تعليم قومهم، فقال لهم: (ارجعوا إلى أهلكم فعلموهم)[١٠٧].

وقد قال الرسول ﷺ: (لاحَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)[١٠٨].

والناظر بتمعن في التجربة النبوية سيجد اهتماما كبيرا بقضية محاربة الأمية التي كانت منتشرة في جزيرة العرب. وحينما أتيحت للنبي ﷺ فرصة لتعليم بعض المسلمين الكتابة والقراءة، اغتنمها ولم يدعها تفوت، وذلك في غزوة بدر، حيث كان بعض أسرى قريش ممّن يعرفون الكتابة والقراءة، فجعل فداء الواحد منهم ليخرج من أسره أن يعلّم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة[١٠٩].

د-**تعلّم اللغات عند الحاجة**: خاصة إذا كانت وعاء لعلم يؤخذ أو حكمة تقتبس، كما تكون الحاجة ماسة إلى تعلّم اللغات لتبليغ الدعوة وإقامة الحجة على الناس. وهنا كان النبي ﷺ حريصا هذا الجانب، فكان من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية، والحبشية.

ولما رأى حاجته لمعرفة اللغة السريانية التي يكتب بها اليهود أمر كاتب وحيه زيد بن ثابت، ليتقنها قراءة وكتابة، ليستغني بها عن الوسطاء من اليهود. قال زيد: (أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: إِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُه لَهُ قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ)[١١٠].

د- الحملة على الأوهام والخرافات: عشعشت في البيئة الجاهلية الأوهام والخرافات، حيث كانت سوقا مزدهرة يتحكّم فيها العرافون والكهنة والسحرة، فجاء الإسلام وأغلق بقوة هذه السوق، معلنا بوضوح أن السنن في الكون لا تتبدّل، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن الخير كل الخير في احترام السنن، ورعاية قانون الأسباب والمسببات. (عن المغيرة بن شعبة قال كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»)[١١١]. وبذلك طارد النبي ﷺ الأوهام التي شاعت عند الناس في الجاهلية، مثبتا أن الكسوف ظاهرة كونية تجري على وفق سنّة أودعها المولى جل جلاله في الكون.

ومن هذه الشواهد أيضا ما نُقِل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[١١٢]. وقال ﷺ: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ سَاحِرًا، أَوْ كَاهِنًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ[١١٣].

ولا شك أن هذه التعاليم ستهيّئ أفضل مناخ نفسي وعقلي واجتماعي لقيام فكر علمي، وحياة علمية. وقد أثمرت هذه القواعد العلمية المتضمّنة في القرآن والسنة بناءً حضاريا شامخا وازن بين السمو الإيماني الأخلاقي والرقي التعميري المادي.

٥- الصياغة السّننية:

لا يقتصر استمداد الأمة من التجربة النبوية على التّصورات والقيم والتّشريعات فحسب، بل هناك جوانب مهمة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمدخل السّنني للتمكين، حيث تضمّنت التجربة النبوية توجيهات قيمة مستلهمة من المنظور القرآني تصب في منحى صناعة وعي المجتمع بأهمية السنن بوصفها حجر الزاوية في بناء الصّرح الحضاري للأمة.

لا شك أن التجربة النبوية قد عززت الوعي بالسنن في الفرد والمجتمع بما تضمّنته من توجيهات قولية وفعلية؛ مما يؤكد موقعها المفصلي في معادلة التمكين للأمة.

إن نظرة متفحصة في التجربة النبوية لبناء مجتمع الصحابة الذي كان وقود النصر في التمكين للدولة الإسلامية، يدرك منها بأن فقها نبويا عظيما في الإعداد والبناء على وفق خطة تراكمية واضحة المعالم والأهداف، وجلية الوسائل والأدوات، كانت الممهد للوصول إلى القابلية للنصر التي تسبق العطاء الرباني بالإمداد. فالقانون الرباني يؤكد ارتباطا وثيقا بين ثنائيات: الاهتداء والهدى، والإعداد والإمداد، والجهاد والتمكين، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا... الآية**﴾[١١٤].

أيقن الرسول الله ﷺ أن معيار النصر على مستوى الدول والمجتمعات لن يكون إلا بالاستثمار في بناء الإنسان بناء يغيره بطريقة لا رجعة فيها وتأهيله اجتماعيا وجعله لبنة للبناء القوي لمجتمع الريادة وصناعة جيل التمكين.

ومن هنا إذن، انبنت التّجربة النبوية في التمكين للأمة على الإنسان بوصفه العنصر الجوهري، وحجرَ الزاوية في إحداث عملية التغيير، والشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي(١١٥)، تمثّلا بالقانون القرآني الذي ورد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**... الآية﴾(١١٦).

لقد قام النبي ﷺ بصياغة جذرية لشخصية المسلم، بداية بتصفيتها من كل الشوائب والمعوقات التي كبّلت طاقاته وعطّلت إرادته وفاعليته في الحياة، وأخبتت جذوته الإيمانية، ثمّ وفّر جوا روحيا ملائما حرّره من قيوده، وأرشده إلى سبل التمكين في الأرض.

قوّمت هذه الصياغة رؤية الإنسان والمجتمع للكون والحياة، وأعادت برمجة نظام تفكيره ومعرفته، لتثمر في آخر المطاف عقلا فاعلا منضبطا بالنواميس الشرعية الكونية، ومتناغما مع غاياته ومقاصده .

وعقب وصول الرسول ﷺ إلى يثرب توجّب عليه تحويل الطاقة المبعثرة والكامنة للأفراد إلى بناء متكامل وشامل يسمو بالمجتمع روحيا وأخلاقيا، ويرتقي به تعميريا وماديا، على وفق تصوّر الوحي وقيمه وتشريعاته، وأنموذجه الواقعي الحي سيرة النبي ﷺ، قال عزّ وجل: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾(١١٧). ثم شرع عليه الصلاة والسلام في وضع الأسس المدنية لبناء الدولة الإسلامية؛ مثل بناء المسجد الجامع. كما تقوّت الرابطة الاجتماعية بعد ذلك بعملية التآخي بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار لحاقا، وصولا إلى وضع ميثاق أشبه بالدستور، يوضح فيه طبيعة العلاقات داخل المجتمع الناشئ؛ بين المسلمين بعضهم مع بعض من ناحية، وبينهم وبين غير المسلمين المقيمين معهم في المجتمع نفسه من ناحية أخرى.

والمتفحص للسيرة النبوية الشريفة سيرصد إشارات كثيرة تؤكد محورية السنن في التجربة النبوية للتمكين للأمة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

أ- **المراجعة والتّقويم**: يُقصد بها التفكر في الأمور قبل الإقدام عليها، مع أخذ الحيطة والحذر، والاعتبار بما سلف من الأخطاء والعثرات، وهذا كله متضمّن في قوله ﷺ: (لا يُلدَغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين)(١١٨).

ب- **بذل الأسباب مع توفير الإمكانات للوصول إلى المقاصد المتوخاة**: وهذا مستوحى من قوله ﷺ: (المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز).

هـ-توظيف أسلوب الإحصاء: يعدّ هذا من أبرز دلال الطريقة العلمية في معالجة الأمور، فقد روى الشيخان عن حذيفة بن اليمان، قال كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: (أحصوا لي: كم يلفظ الإسلام، وفي رواية البخاري أنه قال: اكتبوا لي: من يلفظ بالإسلام من الناس، قال حذيفة: فكتبت له ألفا وخمسمائة رجل)[١١٩]. «فهذا إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام، مقدار القوّة البشرية الضّاربة التي يستطيع بها مواجهة المتربّصين بالدّعوة، ولهذا كان الإحصاء للرّجال فقط، أي القادرين على القتال»[١٢٠].

ويتجلى أيضا في تنفيذ النبي ﷺ لما أشاره عليه سعد بن معاذ عندما اقترح على النبي ﷺ بناء عريش له، يكون فيه مشرفا على المعركة من بعيد فأثنى عليه خيرا و بادر بالتنفيذ. والأمر نفسه حدث في غزوة الأحزاب عندما أشار سلمان الفارسي على النبي ﷺ بحفر خندق حول المدينة، فقبل النبي مشورته وبادر بتنفيذها[١٢١].

تبين هذه الشواهد مقدار عناية النبي ﷺ بالسنن بوصفها مدخلا جوهريا للتمكين في الأرض، كما تظهر حرصه على ترسيخ الوعي السنني في صف المجتمع المسلم الفتي.

يتضح مما سلف البعد الشمولي والتكاملي للتجربة النبوية التي استوفت كل متطلبات بناء المجتمع، ناقلة المنظور القرآني من النظرية إلى التفعيل في الواقع.

ثالثا: التجربة النبوية في بناء المجتمع -خصائصها ومميزاتها- في ضوء القرآن الكريم وما صح من المرويات:

اتّصفت التجربة النبوية في بناء المجتمع التي جسدت المنظور القرآني واقعا متحققا في الحياة بعدّة خصائص وعناصر تميّز، نذكر منها ما يأتي:

١ - **الشمولية في النظر**: المقصود استيعابها في عملية التنزيل في المجتمع لكل متطلبات بنائه منطلقا، ومنهجا، ومقصدا. وهو ما يتجلّى في عدة مناحٍ، نذكر منها ما يأتي:

أ- **من حيث مصادر بناء المجتمع**: التي ارتكزت على المرجعية الإسلامية بكلياتها العقدية والتشريعية والقيمية، فشكلت المنطلق والمنهج والمقصد في عملية بناء المجتمع.

ب- **من حيث استيعاب استعدادات المجتمع**: تميزت بالقدرة على المخاطبة والاستقطاب لأفراد المجتمع بكل أطيافه وتنوعاته الثقافية والاجتماعية، كما راعت مجموع ملكات الإنسان وقواه المودعة فيه، بوصفه النّواة الأولى للمجتمع.

ج- **من حيث المواثيق المكلف بها**: وتتمثل في تفعيل كليات الاستخلاف وفق منهج الله في الأرض، الذي يعدّ بمثابة بوصلة توجيه، يسير المجتمع وفقها في مسار أفقي يتعلق بروابطه الاجتماعية والكونية، وفي مسار تصاعدي يتعلق بروابطه العلوية الإلهية.

د- من حيث الإحاطة بمتطلبات بناء المجتمع: تشخيصا لأدوائه، وعلاجا لمشكلاته وتصويبا لمساره، ملبيا لكل تطلعاته الروحية، ومذلّلا لحركيته التسخيرية التعميرية.

هـ- من حيث المنهج المرسوم له والهدف المتوخّى: سعت هذه التجربة إلى ضبط حركية المجتمع على أساس منظومة متكاملة تحوي أرضية فكرية، وقيم أخلاقية، وعناصر منهجية، تشكّل بمجموعها عامل بعث وتحريك للطاقات الاجتماعية في توافق وانسجام، تتناغم فيه حركية الفرد، مع النشاط الاجتماعي، من أجل تحقيق مقصد أساسي هو إقامة أنموذج حضاري متميّز، يزاوج بين السموّ الإيماني والأخلاقي، والترقّي التعميري المادي، مفعّلا مرجعية الأمة في أرض الواقع.

٢- التكاملية في أنساق العلاقات: تميّزت التجربة النبوية في عملية التدبير بتناسق بنائي، وترابط وظيفي تكاملي بين وحداته، ابتداء من الإنسان، بوصفه النواة الأولى لعملية التغيير، ثم المجتمع في مختلف أنساق علاقاته العلوية الإلهية وروابطه الأفقية الإنسانية والكونية، وصولا إلى بناء الصّرح الحضاري، الذي يمكّن الأمّة من تبوّء مرتبة الريادة والشهود الحضاري.

٣- الفعّالية الواقعية: من عناصر التميّز في هذه التجربة صلتها الوثيقة بالواقع ومتطلّبات استيعابه وتحقيق تطلّعاته، بل إن من مقاصدها الكبرى التفاعل مع الواقع -الإنساني والكوني- هيمنة وإشرافا، وتصويبا. وعلى هذا الأساس اتّجه منظورها إلى واقع الإنسان بوصفه فرداً وواقعه بوصفه عضواً في المجتمع، محاولة تشخيص مشكلاته وعلاجها، وفقه متطلّباته، وتلبية احتياجاته، وترتيب علاقاته، وتنظيم قوانينه العامة والخاصة. وعلى هذا لم تنظر للتعاليم القرآنية على أنها مجرد مبادئ مثالية نظرية، بل هي مثل وقيم عليا منسجمة مع العمل والتطبيق، وتمثل التجربة النبوية خير شاهد على قابليته للتنزيل وصوابية البديل الذي قدمه للإنسانية جمعاء.

كذلك تميّزت هذه التجربة بالقدرة على وضع المجتمع في دائرة الحركة والعطاء والتأثير، مانحة إيّاه طاقة وقوّة حركية دافعة نحو السموّ والتكامل في عالمي المادّة والروح. كما بيّنت استلهاما من التعاليم القرآنية المداخل المناسبة لبعث الفعّالية في حياة المجتمع، عبر استثمار الطاقات المذخورة فيه وتحويلها إلى حركية إيجابية، وفعّالية واقعية، تسعى وتضرب في الأرض في إطار ممارسة مهامّ الخلافة.

٤- الفقه العميق بمداخل التغيير، والتدرّجية في عملية البناء:

خَبِر هذا المنظور وتجربته التنزيلية المعادلة المناسبة لبناء المجتمع، وهو ما تجلى في امتلاك القدرة على التعامل مع واقع تداخلت فيه السنن الاجتماعية مع السنن الكونية.

يتطلّب تفعيل عملية التغيير في هذا المجال المعقّد، فقها عميقا بالمعادلة المناسبة للتكيّف الإيجابي مع تحدّيات الواقع، وحسن التعامل مع العوائق والمثبّطات بإيجاد المساحات الضيّقة، والمناورة فيها لخدمة رسالة المجتمع، وتجنّب المصادمات التي تهدّم المنجزات.

كما يتطلّب مراعاة التدرّج في عملية التغيير، خاصة إذا تعلّق الأمر بتغيير التصورات والمفاهيم وأنماط التفكير، ممّا يتطلّب جهودا نوعية ممنهجة، وحكمة ومصابرة لتحصيل الثّمرة المرجوة، وهي التكوين الشامل والنّوعي للإنسان الذي يتحمّل عبء بناء المجتمع الذي يعد مدخلا للتمكين الحضاري في الأرض.

نذكر من نماذج تمثّل هذا المنظور لمبدأ التدرج النهج الذي سلكه القرآن الكريم في تأسيس منظومة تفكير الإنسان الجاهلي، فقد تنزّل الوحي في مجتمع لاحت فيه ملامح السذاجة والبدائية في التصور والتفكير والمشاعر والمشكلات[١٢٢]، وهو ما يمكن ملاحظتها «في طريقة معارضتهم لدعوة النبي ﷺ بادّعائهم أنه مجنون، قال تعالى في شأنهم: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[١٢٣]، وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة، فهو أسلوب من لا يجد إلّا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان، كما يفعل السذّج البدائيون»[١٢٤].

ولهذا سعى القرآن الكريم لأن يتدرّج بهم في بناء تفكيرهم مراعياً لمستواهم العقلي، ومخاطباً إياهم بما تفهمه عقولهم إلى أن أوصلهم في مدة وجيزة إلى فهم «قانون السببية، والقانون التاريخي، ومنهج البحث الحسي التجريبي»[١٢٥]، وهو الفهم الذي يعدّ مدخلا لامتلاك البشرية مفاتيح التمكين في الأرض، فـ» الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، وتتعمّقها وتتقصّاها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجملها»[١٢٦]، وما كان ذلك ليتحقق لولاها.

٥- الأخلاقية: من المقاصد الأساسية لهذا المنظور وتجربته التنزيلية تعزيز القِيَم الاجتماعية وصيانتها، وتكميل المبادئ الأخلاقية المشتركة بين الأمم والثقافات والحضارات، كالعدل، والحرية، والمساواة، واعتمادها بوصفها منطلقات أساسية للإصلاح والبناء في الدّائرة الإسلامية، وتقويم الانحراف الحاصل في الدائرة الإنسانية، ولهذا تعدّ منظومة الأخلاق الرّوح السارية في المجتمع المنشود.

٦- السّننية: تُعدّ خاصية السّننية عنصرا متجذرا في هذا المنظور وتجربته التنزيلية، تجلّت في التزامه الصّارم بالنواميس والقوانين التي تحكم عملية تغييره، تشخيصا لعوائقه وجذوره، وتصحيحا وتدعيما لمساره، وبهذا الانضباط يعدّ هذا المنظور فقه وتسخير السّنن بشقّيها الاجتماعي والكوني مفتاحا مهمّا لعملية التمكين الحضاري، حفاظا على منجزاته، وديمومة لريادته.

٧- **المقصدية**: تميز هذا المنظور وتجربته العملية بسعة أفق في استشراف مسار بناء المجتمع، حيث كان مقصده بناء صرح حضاريٍّ نوعيّ في قوة أسسه ومتانتها، وشمول مفرداته وتكاملها، وسموّ قِيمهَ، وعلو مكانته، وشهود حضارته. يستوعب الحياة البشرية بمختلف مجالاتها وأطوارها، ملبّيا تطلّعات الأفراد الروحية ورغباتهم المادية بشكل متوازن ودقيق، ومحقّقا لكرامتهم ومكوّنا لشخصيتهم، في انسجام مع الفطرة الإنسانية.

الخاتمة:

نخلص من خلال العرض التفصيلي السابق إلى النتائج الآتية:

١-أثمرت عملية تكوين المجتمعِ المسلمِ على أساس عقديٍّ صحيح، ومنظومة تشريعيّة محكمة بناءً أخلاقيًا شاملاً، تحرّر فيه الإنسان بتمثّله لكلّيات إيمانية تعمّق صلته بالله، ممّا أفضى إلى تناغم حركيته مع وسطه الاجتماعي، في كنف قيم أخلاقية وروحية جامعة تجلّت في التّكافل، والتّعاون على البرّ والتقوى، وتآلف القلوب، وكل ما من شأنه أن يرسّخ وحدة الأمّة، ويدعّم قوّة نسيجها الاجتماعي على أساس الانتساب للإيمان، ضامنا بذلك صلاحية المجتمع الإسلامي واستمراريته في أداء وظيفته في الحياة في إطار تمثّل كلّيات الاستخلاف، قصد تحقيق أعلى درجات التحضّر في عالمي الروح والمادة.

٢- تجلى المنظور القرآني في بناء المجتمع في مجموعة من الأبعاد المتكاملة، بداية بالأبعاد التأسيسية التي تعد العُمَد أو الدعامات الرئيسة، وهي: أ- الصياغة العقدية والإيمانية للمجتمع، ب- الصياغة الأخلاقية والتربوية للمجتمع، ج- الصياغة التشريعية الإجرائية، د- الصياغة الفكرية المعرفية.

ثم يأتي: هـ- البعد السنني الحركي الذي يأخذ على عاتقه تنزيل الأبعاد العقدية والأخلاقية والتشريعية في أرض الواقع، على وفق فقه عميق بسنن التمكين والريادة، وصولا إلى تحقيق الثمرة المرجوة وهي التحقق بـ: و- بعد الشهود الذي يعبر عن المكانة اللائقة التي يتوجب على الأمة تمثلها، بوصفها أمة الوسطية والشهادة التي تحمل أعباء تبليغ رسالة الإسلام وإقامة الحجة على الأناسي.

٣-من أبرز ثمار تأسس المجتمع على هذه الدعامات -وفق المنظور القرآني وتجربته النبوية- تشكل معالم بناء أخلاقي شامل، يتحرّر فيه المجتمع بتمثّله لكلّيات إيمانية تعمّق صلته بالله، ممّا يفضي إلى تناغم حركيته مع الروابط الإنسانية والكونية، في كنف قيم أخلاقية وروحية جامعة تتجلّى في التّكافل، والتّعاون على البرّ والتقوى، وتآلف القلوب، وكل ما من شأنه أن يرسّخ وحدة الأمّة، ويدعّم قوّة نسيجها الاجتماعي على أساس الانتساب للإيمان، ضامنا بذلك صلاحية المجتمع الإسلامي واستمراريته في أداء وظيفته في الحياة في إطار تمثّل كلّيات الاستخلاف، قصد تحقيق أعلى درجات التحضّر في عالمي الروح والمادة.

٤-تأسّس منهج النبي ﷺ في الصياغة الجذرية الشاملة للمجتمع الجاهلي على أربعة دِعامات هي: أ- الصياغة العقدية والروحية للمجتمع، ب- الصياغة الأخلاقية والتربوية للمجتمع، ج- الصياغة التشريعية التعبّدية للمجتمع، د- الصياغة السننية.

٥- تجلّت مخرجات عملية التكوين الشامل للمجتمع عقديا، وتربويا، ومنهجيا، في تمثّل نوعيّ للحضارة، من حيث التحقّق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا أفضى إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتّوافق والتّناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقيّ التعميري المادي.

٦- تتجلى مخرجات عملية بناء المجتمعِ وفق المنظور القرآني والتجربة النبوية في تمثّل نوعيّ للحضارة، من حيث التحقّق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا يفضي إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتّوافق والتّناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقيّ التعميري المادي.

٧- اتّصف المنظور القرآني في بناء المجتمع الذي جسدته التجربة النبوية الميدانية بعدة خصائص وعناصر تميز، نذكر منها ما يأتي: **أ**- الشمولية في النظر، **ب**- التكاملية في أنساق العلاقات، **ج**- الفعّالية الواقعية، **د**- الفقه العميق بمداخل التغيير والتدرّجية في عملية البناء، **هـ**- الأخلاقية، **و**- السننية، **ز**- المقصدية.

٨- إن المنظور القرآني في بناء المجتمع الذي أرسى دعائمه النبي ﷺ في تجربة نوعية أثمرت أنموذجا فريدًا، يتوجب على الأمّة أن تستلهم منه العناصر الحيوية للإصلاح والتجديد، قصدا إلى بعث الحياة فيها من جديد، في عصر هيمنت فيه النزعات العصبية والعنصرية المقيتة والمادية الجاسية، التي أصبحت مُبرمجة ومُحركة لحياة الإنسانية جمعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش

١)[*] ركّزنا على التوحيد في هذا السياق؛ لأنه يمثّل حجر الزاوية في منظومة الاعتقاد، وبالتالي تستمد الكليات الاعتقادية الأخرى وجودها من التوحيد، وعلى هذا الأساس فإن الحديث عن التوحيد يتضمن الأصول الاعتقادية الأخرى.

٢) إسماعيل راجي الفاروقي، إسلامية المعرفة -المبادئ العامة، خطة العمل، الإنجازات- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (بيروت: دار الهادي، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م)، ص٩١.

٣) عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية -المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني-، طبعة إلكترونية ١٤٢٩/٠٨/٠٨هـ- ٢٠٠٨/٠٨/٠٩م، ص١٠٠.

٤) سورة الذاريات: الآية: ٥٦.

٥) انظر: محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، (القاهرة: دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٩)، ص ٣٢.

٦) عبد المجيد عمر النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م)، ص ١٩٦.

٧) سورة الإسراء: الآية: ٨٢.

٨) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الشرعية ٣٢، ١٤٢٣/ ٢٠٠٣)، ج٤، ص٢٢٤٨.

٩) انظر: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢٤٨.

١٠) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

١١) سورة المائدة: الآية: ٢.

١٢) سورة النور: الآية: ٣١.

١٣) سورة العنكبوت: الآية: ٦٩.

١٤) سورة آل عمران: الآية: ١٧٥.

١٥) سورة الكهف: الآية: ١١٠.

١٦) سورة آل عمران: الآية: ١٠٢.

١٧) سورة النحل: الآية: ١٢٧.

١٨) سورة إبراهيم: الآية: ٧.

١٩) انظر: عبد العزيز برغوث، موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي . www.nuronline.com بتاريخ: ٠٣-١١-٢٠١١.

٢٠) سورة الذريات: الآية: ٥٦ - ٥٧.

٢١) يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، (دار الشهاب- الدوحة، ط٢، ١٣٩١هـ-١٩٧١م)، ص٢٠٧.

٢٢) سورة العنكبوت: الآية: ٢.

٢٣) سورة الملك: الآية: ١٤.

٢٤) سورة فاطر: الآية: ١٤.

٢٥) يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٦.

٢٦) سورة إبراهيم: الآية: ٢٣.

٢٧) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٤، ص٤٨٨.

٢٨) سورة النحل: الآية: ٩٧.

٢٩) محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج١٧، ص٢٩٠.

٣٠) ابن تيمية، العبودية، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص٤٤.

٣١) سورة المدثر: الآية: ١٨.

٣٢) سورة الأنعام: الآية: ٥٠.

٣٣) سورة الأعراف: الآية: ١٧٦.

٣٤) سورة البقرة: الآية: ٢١٩.

٣٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون)، ج٢، ص٣٥٤.

٣٦) سورة يونس: الآية: ٢٤.

٣٧) التحرير والتنوير، ج١١، ص١١٤.

٣٨) سورة آل عمران: الآية: ١٩٠-١٩١.

٣٩) محمد عبده، تفسير القرآن الحكيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٩٠م)، ج٤، ص٢٤٦.

٤٠) انظر: عبد المجيد عمر النجّار، فقه التحضرّ الإسلامي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٩م)، ص ٦٥-٧٢.

٤١) خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣م)، ص٨.

٤٢) عبد المجيد عمر النجّار، فقه التحضرّ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٦.

٤٣) سورة الأعراف: الآية: ١٣٠-١٣١.

٤٤) سورة الأعراف: الآية: ١٣١.

٤٥) عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٥.

٤٦) سورة التكاثر: الآية: ١-٢.

٤٧) عمار جيدل، ماهية الإنسان وعلاقتها بحريته وصلته الاجتماعية، (استنبول: شركة نسل، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص ٣٤.

٤٨) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

٤٩) عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، الكتاب رقم ٤، (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، رمضان ١٤٠٣هـ)، ص٥١.

٥٠) سورة الأحزاب: الآية: ٦٢.

٥١) سورة الروم: الآية: ٩.

٥٢) انظر: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، (الجزائر: دار قرطبة، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م)، ص ٧٤.

٥٣) بوقفة رؤوف، نظرية التدافع والتجديد عند طيب برغوث، موقع: egories.php?id=3 . www . alfikr.com/cat التاريخ ١٢-٦-٢٠١٤.

٥٤) الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، مرجع سابق، ص ٧٤.

٥٥) سورة البقرة: الآية: ٢٥١.

٥٦) سورة الانبياء: الآية: ١٨.

٥٧) بوقفة رؤوف، نظرية التدافع والتجديد عند طيب برغوث، مقال سابق.

٥٨) انظر: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، مرجع سابق، ص ٧٥.

٥٩) سورة آل عمران: الآية: ١٤٠.

٦٠) سورة محمد: الآية: ٣٨.

٦١) سورة البقرة: الآية: ١٤٣.

٦٢) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٩م)، ص ٨٠.

٦٣) سورة الرعد: الآية: ١١.

٦٤) والمقصود به الصياغة العقدية والسلوكية للإنسان، التي تنبني على أساس الاقتناع الراسخ والارتباط الوثيق بفكرة معينة.

٦٥) برغوث عبد العزيز بن مبارك، المنهج النبوي والتغيير الحضاري، (قطر: كتاب الأمة، ١٩٩٥م)، ص ١٢٥.

٦٦[*] تشمل هذه المعوقات الأمراض الوراثية التي ورثها المسلمون عن أسلافهم، والتي تجلّت في مسالك تفكيرهم، وأساليب تدبيرهم، ونظامهم التعليمي والاجتماعي، كما تشمل أيضا الأمراض الوافدة من الغرب.

٦٧) سورة القلم: الآية: ٤ .

٦٨) رواه أحمد، واللفظ له وأبو داود، وزاد مسلم: «يغضب لغضبه ويرضى لرضاه».

٦٩) سورة آل عمران: الآية: ١٦٤.

٧٠) سورة الأحزاب: الآية: ٢١ .

٧١) النورسي: المكتوبات، المكتوب التاسع والعشرون، (مصر: دار النيل للطباعة، ط١، (١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م)، ص ٥٨١، وانظر سعاد الناصر، إحياء الأخلاق في الممارسة السلوكية عند الأستاذ النورسي، موقع / www.hiramagazine.com، ١٨/ ٠٩/ ٢٠١١م، الساعة: ١٦:٠٣.

٧٢[*] أطلق علماء الاجتماع على هذه العملية مصطلح الضبط الاجتماعي، التي تعني ضرورة الوعي بشعور الآخرين، ومراعاة حقوقهم وانتهاج سلوك يتأثر بهذا الوعي وهذا السلوك، ومن هنا تأتي أهمية الأنظمة والضوابط التي تطلق نشاط الأفراد في مجالات، وتحبس نشاطهم في مجالات أخرى، وتضع لهم مقاييس للسلوك تقوّم الأمور تبعاً لها، فتعدّ بعض الأمور كريمة محببة وتعدّ بعضها كريهاً مذموماً، وبذلك تعدّ عملية الضبط من أسس بناء المجتمع. انظر: محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، ص ٤١٠، وانظر كذلك: المصري، المجتمع الإسلامي، ص ١٣.

٧٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم: [٥٤].

٧٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ قُتَيْبَةَ، كتاب الظلم، باب تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة.

٧٥) سورة الأنفال: الآية: ٦٣.

٧٦) انظر: سميح عاطف الزين، خاتم النبيين محمد ﷺ، (القاهرة، بيروت: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط٤، ٢٠٠٦)، ص٣٦.

٧٧) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص ١٢.

٧٨) متفق عليه رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم (٥/ ١٦٣) ٥٧ ـ باب نصر المظلوم، حديث رقم (٢٤٤٦)، وفي كتاب الأدب (١٠/ ٥٥٣). ٢٦ ـ باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، حديث رقم (٦٠٢٦)، ورواه مسلم في صحيحه (١٦/ ٣٥٥) بشرح «النووي» – كتاب البر والصلة ١٧ ـ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (٦٥٦٨)، ورواه الترمذي في «السنن» (٣/ ٤٧) بشرح «التحفة»، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، حديث رقم (١٩٩٣)، وقال: «حديث صحيح»، وأخرجه النسائي (٥/ ٨١) بشرح «السيوطي»، كتاب الزكاة، ٦٧ ـ باب أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه، حديث رقم (٢٥٥٦).

٧٩) أشار القرآن الكريم إلى المؤاخاة في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». الأنفال: ٧٢.انظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين -دين ودولة- القسم الثاني: الاضطهاد والهجرة والتنمية- (بيروت: بيسان، ط١، ٢٠١١م) ص٤٧١-٤٧٢.

٨٠) راجع: جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم (بيروت: دار الحديث للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠٧م)، ج ٥، ص ٣٦٧.

٨١) لمّا أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾، سورة الأحزاب: الآية: ٦. رُد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوّة، ففي بداية الإسلام كان هناك أسر بعض الأبناء فيها مسلم، وبعض الأبناء مشرك، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون التوارث بين الإخوة المؤمنين، ولكن بعد نزول: ﴿وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ رُد التوارث إلى الرحم دون عقد الإخوة. وكانت المؤاخاة في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، أي بعد الهجرة بخمسة أشهر. فكان الإرث في صدر الإسلام بالهجرة والمؤاخاة في الدين، فنسخ الله ذلك وجعل التوارث بالنسب والقرابة، روي عن الزبير أنه قال: لمّا قدمنا معشرَ قريش المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم، فآخى أبو بكر (خارجة بن زيد) وآخيتُ (كعب بن مالك) فوالله لو قد مات عن الدنيا ما ورثه غيري حتى أنزل الله: (وَأُوْلُو الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كتاب الله) فرجعنا إلى موارثنا. انظر: تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر، ج١٤.

٨٢) رواه الطبراني عن عبادة بن الصامت.

٨٣) رواه الترمذي عن عمرو بن عوف بن زيد.

٨٤) سورة سبأ: الآية: ٤٦.

٨٥[*] من شواهد هذا الخلق الإسلامي الرفيع ما رواه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ، مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، الحشر: ٩.

٨٦) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

٨٧) رواه البخاري في كتاب المزارعة بَاب إِذَا قَالَ اكْفِنِي مَئُونَةَ النَّخْلِ وَغَيْرِهِ وَتُشْرِكُنِي فِي الثَّمَرِ.

٨٨) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٩هـ)، ج١/ ٢٣٨.

٨٩) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون- رسالة أبي الدرداء إلى سلمان الفارسي والعكس- (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ)، ج١ / ٥٤٨-٥٤٩.

٩٠) سورة الحشر: الآية: ٩.

٩١) متفق عليه.

٩٢[*] ويقصد هنا بالخصوص آلية: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. إضافة إلى الحدود، والقوانين الرّادعة التي تعدّل سلوكيات الأفراد المنحرفة تحقيقا للأمن في المجتمع.

٩٣) رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

٩٤) انظر: سميح عاطف الزين، خاتم النبيين محمد ﷺ، مرجع سابق، ص ٢٨، ٢٩.

٩٥) رواه مسلم.

٩٦) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

٩٧) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

٩٨) انظر لمزيد من التفصيل في بيان هذه الأسس: يوسف القرضاوي، السنة مصدرا للمعرفة والحضارة (القاهرة: دار الشروق، ط٣، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ص١٨٠ - ١٨٤.

٩٩) سورة البقرة: الآية: ١١١.

١٠٠) سورة الأحقاف: الآية: ٤.

١٠١) متفق عليه.

١٠٢) ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب أنه انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط من أصحابه قبل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الغلمان في أطم بني مغالة - بضم الهمزة والطاء - وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده ثم قال أتشهد أني رسول الله فنظر إليه فقال أشهد أنك رسول الأميين ثم قال ابن صياد أتشهد أني رسول الله فرضه النبي ﷺ ثم قال آمنت بالله ورسله ثم قال لابن صياد ماذا ترى قال يأتيني صادق وكاذب قال رسول الله ﷺ خلط عليك الأمر، قال رسول الله ﷺ إني خبأت لك خبيئا ؟ قال هو الدُّخُّ قيل –:الدخان، وقيل أن النبي ﷺ كتب آية الدخان في يده: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين»، وقيل نبتٌ يكون بين البساتين - . قال رسول الله ﷺ: أخسأ فلن تعدو قدرك. قال عمر يا رسول الله أتأذن لي فيه أضرب عنقه؟ قال رسول الله ﷺ: إن يكن هو لا تسلط عليه وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله. قال سالم فسمعت عبد الله بن عمر يقول انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبي بن كعب الأنصاري يؤمان النخل التي فيها ابن صياد حتى إذا دخل رسول الله ﷺ طفق رسول الله ﷺ يتقي بجذوع النخل وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئا قبل أن يراه (ومعنى يختل يعني يتغافل ابن صياد من غير أن يشعر به)، وابن صياد مضطجع على فراشه في قطيفة له فيه رمرمة أو زمزمة (صوت خفي لا يكاد أن يفهم، أو لا يفهم) فرأت أم ابن صياد النبي ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل فقالت لابن صياد أي صاف وهو اسمه هذا محمد، فتناهى ابن صياد. جاء في رواية مسلم فثار ابن صياد) قال رسول الله: لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّن. قال سالم قال عبد الله قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني أنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور. رواه البخاري ومسلم١٨/ ٥٣ .

١٠٣) سورة ص: الآية: ٢٦.

١٠٤) انظر: يوسف القرضاوي، السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، مرجع سابق ص٢٦.

١٠٥) رواه الترمذي بسنده عن حذيفة.

١٠٦) سورة المجادلة: الآية: ١١.

١٠٧) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٨٧.

١٠٨) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ٧٣.

١٠٩) روى الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة.

١١٠) رواه الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في تعليم السريانية (٢٧١٥).
١١١) رواه البخاري، باب: الصلاة في كسوف الشمس (٩٩٦).
١١٢) رواه الشيخان.
١١٣) رواه أبو داوود.
١١٤) سورة العنكبوت: الآية: ٦٩.
١١٥) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، مرجع سابق، ص ٨٠.
١١٦) سورة الرعد: الآية: ١١.
١١٧) سورة الأحزاب: الآية: ٢١ .
١١٨) أخرجه البخاري (٦١٣٣) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٨) في كتاب الزهد والرقائق.
١١٩) أخرجه مسلم حديث (١٤٩)، وأخرجه البخاري في «كتاب الجهاد»، «باب كتابة الإمام» حديث (٣٠٦٠)، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن «باب الصبر على البلاء» حديث (٤٠٢٩).
١٢٠) يوسف القرضاوي، السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، مرجع سابق، ص١٨٥ .
١٢١) انظر: سيرة ابن هشام: ١٢\ ٢٢٤، والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء، لابن حبان: ١١\ ٢٥٥.
١٢٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٥٤.
١٢٣) سورة القلم: الآية ٥١.
١٢٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٥١.
١٢٥) انظر: عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص٤٨-٦١.
١٢٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج١، ص٤٠.

قائمة المصادر والمراجع بطريقة شيكاغو(Chicago)

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١)**الفاروقي**، إسماعيل راجي. ١٤٢١هـ-٢٠٠١م. إسلامية المعرفة -المبادئ العامة. خطة العمل. الإنجازات- المعهد العالمي للفكر الإسلامي. دار الهادي. بيروت. لبنان.

٢)**النجار**، عبد المجيد عمر. ١٩٩٧م. الإيمان بالله وأثره في الحياة. ط١. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.

٣)**خليل**، عماد الدين. ١٩٨٣م. التفسير الإسلامي للتاريخ. ط٤. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان.

٤)**ابن عاشور**، الطاهر. (لا.ت). تفسير التحرير ٦٦والتنوير. دار سحنون. تونس.

٥)**عبده**، محمد. ١٩٩٠م. تفسير القرآن الحكيم. د. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر.

٦)**عبده**، محمد. ١٣٣٤هـ. تفسير جزء عمّ. ط١. الجمعية الخيرية الإسلامية. القاهرة. مصر.

٧)**الطبري**، أحمد بن جرير أبو جعفر. (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م). جامع البيان في تأويل القرآن. تح: أحمد محمد شاكر، ط١. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.

٨)**القرطبي**، محمد بن أحمد الأنصاري. (د.ت). الجامع لأحكام القرآن. ج١٤. دار الفكر.

٩)**خليل**، عماد الدين. (رمضان ١٤٠٣هـ). حول تشكيل العقل المسلم، -كتاب الأمة رقم٤. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. الدوحة.

١٠)**الزين**، سميح عاطف. (٢٠٠٦م). خاتم النبيين محمد ﷺ. ط٤. دار الكتاب المصري . دار الكتاب اللبناني. القاهرة. بيروت.

١١)**العمري**، عبد العزيز. (٢٠١١ م). رسول الله ﷺ وخاتم النبيين -دين ودولة-. القسم الثاني: الاضطهاد والهجرة والتنمية-. ط١ .بيسان. بيروت. لبنان.

١٢)**أبو سليمان**، عبد الحميد.) ١٤٢٩/٠٨/٠٨هـ-٢٠٠٨/٠٨/٠٩م(. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية -المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني-. طبعة إلكترونية.

١٣)**القرضاوي**، يوسف. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م). السنة مصدرا للمعرفة والحضارة. ط١. دار الشروق. القاهرة. مصر.

١٤)**الترمذي**. السنن.

١٥)**الذهبي**.(١٤٠٢هـ).سير أعلام النبلاء. تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون.- رسالة أبي الدرداء إلى سلمان الفارسي والعكس-. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.

١٦)**ابن سعد**. (١٤٠٩هـ). السيرة النبوية من الطبقات. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة. مصر.

١٧)**البخاري**. (د.ت). الصحيح.

١٨)**مسلم**. (د.ت). الصحيح.

١٩)**العاملي**، جعفر مرتضى.(٢٠٠٧م).الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ. ط٢. دار الحديث للطباعة والنشر. بيروت. لبنان.

٢٠)**القرضاوي**. (١٣٩١هـ-١٩٧١م). العبادة في الإسلام. **ط٢**. دار الشهاب. الدوحة. قطر.

٢١)**ابن تيمية**، تقي الدين أحمد. (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م). العبودية. ط٧. المكتب الإسلامي. بيروت. لبنان.

٢٢)**وافي**، علي عبد الواحد. (د.ت). علم الاجتماع. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٣)**برغوث**، الطيب.(١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م). الفعالية الحضارية والثقافة السننية. ط١. دار قرطبة. الجزائر.

٢٤)**النجار**، عبد المجيد عمر. (١٩٩٩م) . فقه التحضّر الإسلامي. ط١. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.

٢٥)**قطب**، سيد. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م). في ظلال القرآن. ط٣٢. دار الشروق، القاهرة. مصر.

٢٦)**جيدل**، عمار. (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م). ماهية الإنسان وعلاقتها بحريته وصلته الاجتماعية. ط١. شركة نسل. استنبول. تركيا.

٢٧)**أبو عجوة**، محمد نجيب. (٢٠٠٠م). المجتمع الإسلامي دعائمه وآدابه في ضوء القرآن. مكتبة مدبولي. القاهرة. مصر.

٢٨)**ابن حنبل**، أحمد. (١٤١٤هـ- ١٩٩٣م). المسند. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان.

٢٩)**عمارة**، محمد. (٢٠٠٩م). معالم المنهج الإسلامي. ط٢، دار الشروق. القاهرة. مصر.
٣٠)**النورسي**، سعيد. (١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م). المكتوبات. المكتوب التاسع والعشرون. ط١. دار النيل للطباعة. القاهرة. مصر.
٣١)**برغوث**، عبد العزيز بن مبارك. (١٩٩٥م). المنهج النبوي والتغيير الحضاري. كتاب الأمة. قطر.
٣٢)**ابن نبي**، مالك. (١٩٨٩م). ميلاد مجتمع. دار الفكر. دمشق. سوريا.

المقالات:
٣٣)**برغوث**، عبد العزيز. (١١-٠٣-٢٠١١). موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي. المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي.www.nuronline.com
٤٣) نظرية التدافع والتجديد عند الطيب برغوث. (١٢-٦-٢٠١٤). **بوقفة** رؤوف. موقع:
alfikr.com/cat . www egories.php?id=3.